أرواح عالقة

© حُقُوقُ الطَّبْعِ مَحْفُوظَةٌ

اسم الكتـــاب: أرواح عالقة
تـأليـــــــف: مها ممدوح
تصميم داخلي: سالم عبدالمعز سواح
النـاشـــــــر: دار الزيات للنشر والتوزيع
القـطـــــع: 21X14
سنـة النشـر: 2025

تم الإيداع بدار الكتب والوثائق المصرية برقم: 28787 / 2025
الترقيم الدولي (ISBN): 978 - 977 - 844 - 667 - 8

دار الزيات للنشر والتوزيع
المشهرة قانونًا بسجل تجاري رقم/ ٤٩٣٥١

ت: ٠١٠٦٦٧٣٦٧٦٥ - ٠١٠١٥٧٦٦٠١٤ / shahnda71@gmail.com

ISBN 978-977-844-667-8

أرواح عالقة

مجموعة قصصية

مها ممدوح

إهداء

إلى قطعة من قلبي أهداها الله لي بعد بلاءٍ عظيم،

فتجاوزتُ بها الألم.

إلى فيروز..

إلى كُتَّاب عظام أسعدتنا كتاباتهم، وعلَّمتنا الكثير من المبادئ في طفولتنا وشبابنا ولازالت تسعدنا..

إلى مَن شاركوا آبائنا في تهذيب أخلاقنا،

إلى العظيم الراحل د /نبيل فاروق.

والأب الروحي الراحل د / أحمد خالد توفيق.

المقدمة

بين يديكم عملي الأدبي الرابع والأول في أدب الرعب، استعدوا الآن لمقابلة مجموعة من الأصدقاء في واحدة من أشد ليالي الإسكندرية برودةً، واستمعوا منهم لقصص أرعبتهم هم قبل أن ترعبنا نحن، مستعدين؛ إذن هيا بنا..

أرواحٌ عالقةٌ

ليلةٌ شتوية باردة، خميس عاصف تُغرِق شوارعه الأمطار، يحمد الجميع ربهم أن الغد يوم العطلة الأسبوعية؛ حتى لا يضطرون للخروج صباحًا لعملهم فى ذلك الطقس..

ومقهى صغير قديم فى أقدم شوارع الإسكندرية، مقهى معروف بطرازه العتيق، ووجهاته الزجاجية العتيقة، وبوابته العالية، وإطلالته الهادئة الجانبية على شارع النبي دانيال، ذلك الشارع الذي يحمل عبق التاريخ منذ أن خطَّطه الأسكندر الأكبر يومًا مع مهندسه دينوقراطيس ليتقاطع مع شارع فؤاد.

كانت السهرة في ذلك المقهى هي ما يحتمل لأجله حسين ورفاقه أسبوعهم القاسي فى العمل، وعلى الرغم من الأجواء الباردة الخالية من الناس، إلا أن ذلك لم يمنعهم من سهرتهم الأسبوعية المعتادة، التي يحافظون عليها منذ عشرين عامًا، مهما كانت حالة الجو سواء كان عاصفًا شديد البرودة أو حارًا زمهريرًا .

كانوا يفضِّلون السهر حتى ساعات الفجر الأولى داخل المقهى، رغم حالة المقاعد الخشبية غير المريحة، والتي لا يتخلَّى عنها المقهى؛

لكونها جزء من تاريخية المكان، لم يثنِهم هذا عن رغبتهم في البقاء، ولم يثنِهم يومًا عن التجمع فيه منذ سنواتٍ خلت.

جابوا شوارع الإسكندرية طولها وعرضها، بل وسبق لهم أن جرَّبوا العديد من المقاهي والكافيهات الأكثر عصرية، ألا وأنهم لم يسكن قلبهم لمقهى غيره أبدًا، رغم حوائطه التي انعدمت ألوانُها من فرط القِدم، وزجاجه الذي تحوَّل من الشفَّاف إلى الرمادي، إلا أن شيئًا فيه كان يتربَّع على عروش قلوبهم، ربما تلك الألفة التي نشأت تدريجيًا منذ سنواتٍ مضت بينهم وبين المكان، أو ربما ذكريات المراهقة التي تشهد عليها جدران المقهى، أو تلك الرائحة، من المضحك جدًّل أن هذه الرائحة التي اختلطت فيها رائحة المياه المغلية برائحة المشروبات المختلفة ورائحة التبغ والأرجيلة يكون لها وقع خاص على أنوفهم، ودغدغة خاصة تداعب عقولهم وخلاياهم العصبية، فتُشعِرهم بالهدوء والرضا.

ابتسم حسين نافضًا تلك الخواطر عن عقله وهو يقترب من المقهى الذي خلى من رواده، حيث اقترب الوقت من منتصف الليل، الطريق نفسه يكاد يخلو من المارة، فما بالك بمقهى بلدي في يومٍ كهذا، عدَّل ياقة معطفه الصوفي، وأحكم الكوفية حول رقبته وهو يدخل بضوضائه المعتادة قائلًا بمرحٍ:

"شلة المغامرون الخمسة مستعدون".

تبادلوا معهم الأحضان والسلامات قبل أن يهتف إسماعيل بحنق احمرَّ له وجهه شديد البياض:

"ألن تغير هذا اللقب أبدًا؟ أنت تصرُّ على استخدامه على الدوام، وأطلقت الاسم نفسه على مجموعتنا على الواتس أب.. ألن تنساه أبدًا؟"

أجابه حسين بخفة دمه المعهودة وهو يفرد قامته الممشوقة أمامه في أستعراض واضح لطوله وعضلاته ووسامته المفرطة:

" لم يبق من الطفولة غيره يا صديقي.. أنه الشيء الوحيد الذي احتفظنا به بعد أن كبرنا جميعًا وتغيَّرنا".

ثم غمز له غمزة ذات معنى قائلًا:

" حتى أشكالنا تغيَّرت ".

احمرت أذنا إسماعيل بشكلٍ واضح، واضطربت ملامحه، فحسين لن يكف عن التنمر أبدًا على جسده الممتلئ القصير، خاصةً مع قامة حسين الممشوقة الفارعة وجسده المتناسق، همَّ إسماعيل أن ينفجر في وجهه بتسرُّعه المعهود، فتدخل وائل مُلطِّفا للجو قائلًا بهدوئه ورجاحة عقلة المعتادة:

" مَن أخبرك أنه لم يبقَ شيء غير اللقب؟ على الأقل تبقَّت صداقتنا عبر السنين، وتبقَّى كذلك حبنا لذلك المقهى".

أكمل إسلام قائلًا وهو يفرك كفيه في بعضهما في حركةٍ تلازمه دومًا منذ الطفولة:

"لماذا تأخَّرت كل هذا الوقت نحن هنا منذ حوالي الساعة؟ "

رد حسين مندهشًا وهو يُخرِج علبة سجائره من جيبه، ويدفع بواحدة لإسلام قائلًا:

"إنها المرة الأولى التي تعترض فيها على تأخُّري يا صديقي، كما أن غدًا أجازة، فلما العجلة؟"

تمتم وائل بكلمات لم تلتقطها آذانهم وهو يخفض بصره، فمط أحمد شفته في غيظٍ وهو يقول:

" عشرون عامًا وأنتَ لا تتغير، ولو التزمت في موعد لذبحت عجلًا لله".

رد حسين قائلًا:

"سوف أحضر في الأسبوع القادم قبل الموعد لعلك تذبح العجل، ولكن أرجو ألَّا تأتي لتسألني ما حجم العجل ولونه كما فعل بني إسرائيل".

ضحك الجميع لدعابة حسين الذي استدار لزقزق صبي القهوة وقال:

" سحلبك المعتاد يا زقزق بسرعة ".

ثم استدار لهم وهو يضع يده على بطنه قائلًا:

" لقد بدأ كرش في النمو هنا بسبب سحلب زقزق ".

وجدها إسماعيل فرصة ليثأر لكرامته، فرد قائلًا:

" لا أعتقد أن السبب سحلب زقزق، ولكني أعتقد أنه تنمرك المستمر على كرشي الصغير".

قالها وهو يحرِّك يده على بطنه المستدير.

سحب حسين كرسي ليجلس وهو يرد قائلًا:

" كرش صغير! أتسمي هذا كرش صغير؟ سامحك الله ".

تجاهل إسماعيل هذه المرة للدعابة وهو يقول:

" هيا أذن أنا انتظرك منذ ساعة للعب دور طاولة كعادتنا ".

تمطأ حسين وعاد بالكرسي للوراء في حركة صبيانية لم يكف عنها أبدًا، طقطق لها الكرسي تحته قائلًا:

" لا، دعنا نتبادل الحكايات اليوم كأيام صبانا الأولى .. هل تذكرون؟"

شردوا جميعًا بعد كلمته الأخيرة تلك، أيام طفولتهم وصباهم وصداقة أستمرت لسنواتٍ تخطَّت الربع قرن بخمس سنوات كاملة، لم يفترقوا خلالهم حتى حين فرقَّتهم جامعاتهم ووظائفهم،

مرت أعوام، وأعوام مضت، وتلك الصحبة لا يفرِّقها الزمن، ولا يفت فى عضدها مصائب الحياة وتقلُّباتها، لم يفيقهم من شرودهم إلا بهلول _ كما يسميه رواد القهوة _ الذي مر ببخوره المعتاد رغم تأخر الوقت قائلًا كلمته التي اعتادوا سماعها:

" نجينا من نفسنا يااااارب " .

عاد زقزق حاملًا أكواب السحلب التي يتصاعد منها البخار، ويغطي وجهها كمية لا بأس بها من المكسرات، فاعتدلوا جميعًا في جلستهم فوق تلك الكراس الخشبية غير المريحة؛ ليتركوا له المجال ليضع الأكواب أمامهم .. وكعادته تناول إسماعيل كوبه على عجل قبل حتى أن يضعه زقزق على الطاولة، ورشف منه رشفةً سريعة جعلته يطلق صرخه أضحكتهم منه، عبروا جميعا حاجز الثلاثين بل انهم واشكوا على الأربعين، ولم يكف إسماعيل عن عادته تلك.. دومًا يتلهَّف للحصول على الطعام والمشروبات، ودائمًا ما يحترق لسانه لتعجله هذا، ورغم ذلك لم يكف عن تلك العادة أبدًا.

قطع إسلام صمتهم قائلًا بهدوء:

" ألا تعتقدون أن اسم شلة العوانس يليق بنا أكثر؟"

نظروا جميعًا لبعضهم لثوان متعجبين من مبادرة إسلام بالحديث؛ فدائمًا هو الصامت بينهم، ونادر التحدث.. ثم انفجروا ضاحكين حتى دمعت عيونهم، ثم قال وائل بلباقته المعهودة:

" لم تعد للكلمة معنى يا صديقي، لا بين النساء ولا الرجال، الزواج الآن لم يعد مرتبط بعمر معين.. ثم منذ متى وأنت تتلهَّف للزواج، كنت أظنك ناسكًا لا تتحمس للفكرة"ـ

فرك إسلام كفيه مرة أخرى في توتر وقال:

" ولازلت يا صديقى أرفضه، ولكن والدتي.."

صمت ثوان وكأنه يستجمع شجاعته، ثم قال بتوتر ملحوظ:

" والدتي بدأت تتردد على الدجالين بعد أن كانت تتردد على الخاطبة، تعتقد أنني (معمولى عمل)".

ضحكوا جميعًا، ثم ربَّت وائل على كتفه قائلًا:

" لا تجعل هذا يضايقك؛ فأنت وحيدها، ومن المؤكد أن عزوفك عن الزواج هذا يزعجها ".

طأطأ إسلام رأسه في استسلام ليته ينساها ويتزوج غيرها.. تزوجت مروة، وأصبحت أمًّا لثلاث اطفال، أما هو فلا يستطيع تخطي تلك القصة التى مر عليها ما يزيد عن عشر سنوات، نظر إلى الأرض لعله يهرب من نظراتهم التي تخترقه، ليجد قطة صغيرة راحت تتمسح في قدمه وتموء، ربَّت على رأسها، وتشاغل عنهم بفتح كيس موضوع على طرف الطاوله معقود على ما فيه، وتناول منه بضع لقيمات ألقاها لها رغم تقزز أحمد الواضح وأنكماشه فى كرسيه، مما دفع حسين لمحاوله استفزازه بقوله:

" ألا زلت تخاف القطط؟

بكل ذلك الطول والعرض وتخاف من قط؟

يا صديقى أنت من سلالة الديناصورات بطولك هذا الذي تجاوز المترين ".

نظر له أحمد بعصبيةٍ واضحة.. كان بالفعل طويل القامة بشكل كبير، عريض وممتلئ بدرجة مهولة تتناسب مع طوله، وتجعله يبدو ضخمًا للغاية، لكنه يكره تلك الكائنات، يراهم كرات شعر خبيثة تلتصق بك لتحقق مصالحها، أما لو لم تطعمها، فغالبًا سوف تهاجمك لتنشب مخالبها بقلبك، قال بعد لحظاتٍ من الصمت:

" أنا لا أخافهم، أنا فقط أشعر بالكراهية ناحيتهم".

قال له حسين مقلدًا صوت أحمد الأجش وطريقته الخشنة في الحديث في محاولة لاستفزازة أكثر قائلًا:

" حسنًا، ولما تكرههم أيها التيرانوصور؟"

اعتدل أحمد في مقعده بعصبية جعلت حسين يجفل ويتراجع بظهره للخلف، فابتسم أحمد وعدل من هندامه، ثم تناول كوب السحلب قائلًا في هدوء:

"حسنًا، سوف أحكي لكم تلك القصة المرعبة التي تناسب تلك الأجواء الشتوية وذلك السكون، ولكن إن خفتم فتذكروا أنكم مَن سألتم.

في بيتنا قطٌ

هل زرتم قرى الصعيد يومًا يا أصدقائي؟

لا أعتقد حتى وإن حدث فمؤكد أنكم لا تتخيَّلون كيف كان حالها في أربعينيات القرن الماضي، منزل جد أمي حمدان كان الأكبر بينهم، منزل طيني من طابقين يربطهم سلم داخلي، وصحن دار متسع تلهو فيه الطيور والدواجن في مرح مع ضوء الشمس الذي يغمرهم من سطح المنزل، ورائحة الفطائر والخبز تملأ الأنوف بالراحة و الدفء، كل شيء كان جميل ومستقر مع استقرار جدة أمي ووجود الأبناء والأرض والدار حتى ذلك اليوم.

يوم ربيعي مشمس عاد فيه مسعد ابن الشيخ رضا من القاهرة، ولم تكن زيارة كالعادة، مسعد عاد بكل ما أمكنه ادخاره من مال ليشتري قطعة أرض صغيرة، ويتزوج ويبقى في البلدة.. تلك الفترة عمومًا اتسمت بالحروب والاضطرابات إلا أن حياة الريف – على فقرها أنذاك كانت أكثر استقرارًا وهدوءًا وبعدًا عن المشكلات والاضطرابات، ولكن مسعد كان قد عاصر كل تلك الاضطرابات في القاهرة، وأرهقته الأحاديث السياسية والقلق الدائم والتظاهرات، فعاد ليستقر بجوار والديه، ويحقق لهما رغبة تأخر في تحقيقها منذ سنوات طويلة، وهي أن يصبحا جدًّا وجدة.

عاد محملًا بالحكايات والقصص التي أضاف عليها خياله أحداثًا جديدة، جعلها مثيرة تطرب أذان مَن يسمعها ويشعر معها أن مسعد صار واحدًا من كبار السياسين في القاهرة، مما حقق له نوعًا من الزعامة النفسية على مَن حوله، كانت تحلو السهرة في باحة دار الحج رضا، ويجتمع الأصدقاء والأحباب يوميًا بعد العشاء لساعة أو اثنتين للحديث مع مسعد، وبما أن المنزل مجاور لحمدان، وبما أن حمدان صديقٌ مقربٌ لمسعد منذ الطفولة، فقد أصبح زائرًا يوميًا لتلك الجلسات، وشريكًا أساسيًا بها.

واستمرت تلك السهرات طوال فصلي الربيع والصيف، بل أنها امتدت حتى بدايات فصل الشتاء، سهراتهم كانت مليئة بالضحكات وحكايات الخواجات ونوادرهم الطريفة من حروفهم العربية ذات اللكنة الأجنبية وبخلهم الشديد أو كرمهم الزائد وسلوكياتهم المتناقضة تارة، أو مليئة بالقلق على أحوال العالم وخاصةً مصر من تلك الحروب ، التي تصل أخبارها بصعوبة، وموقف الملك من رفض خوض تلك الحروب ومحاصرة الإنجليز لقصره لإجباره على تغيير حكومته تارة أخرى، ثم بدأت سهراتهم في الانقطاع بالتدريج مع انتشار البرودة التدريجي وقصر ساعات النهار.

انقطعت تلك السهرات لثلاث شهور كاملة كان منزل الحج رضا خلالها، ورغم برودة الجو يخرج منه ضوضاء معظم تلك الأيام .. ثم يخرج مسعد ليلًا متسحبًا ليُخرِج عدة أجولة من التراب، لم

يحتج الأمر لكثيرٍ من التفكير ليدرك المرء أن مسعد أصابته حمى البحث عن المساخيط، ولكن لماذا؟

رغم إدراك الجميع، وأولهم حمدان لهذا الأمر إلا أن أحدًا لم يجروء على التحدث مع الشيخ رضا الذي بدا مهمومًا محزونًا معظم الوقت، خاصةً لمكانة الرجل بينهم وحبهم الشديد له، ولعلمهم أن مسعد ولده الوحيد و له مكانة خاصة في قلبه، لذا لم يجروء أحد على إثارة الأمر أو التهكم عليه، حتى انتهى فصل الشتاء أخيرًا، وقرر الحج رضا نفسة طلب العون.

لذلك في صباح يوم ربيعي مشمس وجد حمدان الحج رضا يدق بابه في حياء؛ ليتحدث معه في أمرٍ هام، وبمجرد أن استقر مجلسهم في باحة منزل حمدان الواسعة، واستقرت أكواب الشاي أمامهما، حتى بدأ الشيخ رضا في الكلام مباشرًا قائلًا بأسى ارتسمت تفاصيله على قسمات وجهه، فزادته عمرًا على عمره:

" مسعد ابني اتجنن يا بني".

رفع حمدان حاجبيه في دهشة لمعرفته أن الشيخ رضا لن يصف ابنه الوحيد وجوهرة قلبه بهذا الوصف إلا لو أنه واثق تمامًا من هذا، تمالك نفسه سريعًا؛ حتى لا يلاحظ الرجل دهشته وسأله بصوتٍ قوي، حاول جاهدًا أن يخفي به ما يعتمل في صدره من قلق قائلًا:

" لماذا يا عمي.. مسعد زينة شباب القرية، وكلنا نعلم أنك اهتممت بتعليمه اهتمام خاص.. كما أنه عمل لفترة في القاهرة، فلماذا تظن ذلك؟"

وضع الشيخ رضا الكوب من يده، ثم قال والحزن يقطر من صوته:

" قابل دجالًا يا ولدي، واستمع له حين كان يعمل في القاهرة ".

ضم قبضته وشفتيه في أسى، وأكمل قائلًا:

" أخبرة أنه من إحدى قرى الصعيد، وأن في غرفته تحت الهلال مباشرًا يوجد مقبرة فرعونية".

ذوى حمدان ما بين حاجبيه، ثم قال بدهشةٍ واضحة لم يحاول إخفائها:

" عن أي هلال يتحدث ؟!!"

قال الشيخ رضا:

" في غرفة مسعد وبجوار منامته، رسم وهو صغيرًا هلالًا بحجر جيري على الحائط قبل رمضان في تلك السنة ب أيام قليلة، ومنذ ذلك الحين لم يمحوه أحد".

رد حمدان بسرعة:

" ومن أين لذلك الدجال أن يعرف بأمر ذلك الهلال؟ "

غمغم الشيخ والحزن لا يفارق صوته:

" كذب المنجمون، ولو صدفوا يا ولدي".

هز حمدان رأسه مفكرًا، ثم سأله قائلًا:

" ولكن يبدو أنه يحفر منذ ثلاثة أشهر كاملة، فهل وجد شيئًا؟"

رفع الشيخ وجهه ناظرًا لوجه حمدان بدهشةٍ، ثم استدرك نفسه؛ فالجدار ملاصق للجدار، ويبدو أن أصوات الحفر والخبط قد التقطتها أذن حمدان وأسرته، فهز الشيخ رأسه، وقال:

" يابني لقد أخبرتك كذب المنجمون ولو صدفوا، بالطبع لم يجد شيئًا على الإطلاق، ولكن حمى الحفر أصابته، أنه يحفر أرض الدار بلا توقف، أنت صديقه يا بني، أرجوك تحدَّث معه؛ لعل حديث شابٍ يقاربه في السن يؤثر به".

هز حمدان رأسه في شهامة واضحة وهو يقول:

" بالطبع يا عمي، أيمكنني المجيء اليوم بعد صلاة العشاء".

مسك الشيخ رضا كف حمدان بكفية فى امتنان قائلًا:

"بالطبع يابني، يمكنك المجيء في أي وقتٍ؛ فالمنزل منزلك ".

.....

في مساء اليوم نفسه، وبعد انتهاء صلاة العشاء اتجة حمدان لمنزل الشيخ .. كان قد أعد في عقله الحوار كاملًا؛ ليقنع مسعد أن ما يفعله مضيعة للوقت والمال والجهد .. وأنه من الأفضل له لو ساعد والده في أرضه وتزوج؛ فقد واشك على منتصف العقد الرابع، وتأخر كثيرًا على تلك الخطوة.

وفي عقله راح يتذكر مسعد، صديق طفولته منذ أن وعى الدنيا، الداران متلاصقان مسعد نبيه ذكي من يومه، وحيد والديه، وقد أولاه والده اهتمامًا خاصًا منذ نعومة أظافره، كان الرجل يعده ليكون طبيبًا، ووكان الكل يتوقع له ذلك، تعلَّم مسعد معه في الكُتاب ثم حصلا على الشهادة الابتدائية سويًا، ورغم أن مسعد أكمل تعليمه على صعوبة ذلك وقتها إلا أنه لم يلتحق بأي جامعة، وقرر الاكتفاء بالتوجيهية، وعمل في القاهرة، كان وضعه مسار حسد الكثيرين من أقرانه في القرية، ملابسه التي يأتي بها من القاهرة، وتلك الهدايا التي يحضرها معه لوالديه، استعاذ بالله من الشيطان الرجيم، مؤكد أصاب مسعد مسٌّ، أو ربما هو الحسد .. لا يصدق أن شخصًا بعقل مسعد وذكائه ينساق وراء الدجالين.

كان مسعد ينتظره في الباحة أمام الدار، وقد جلس مستندًا إلى الحائط مغمضًا عينيه، مهوشًا الشعر، ابيضت بعض خصلاته، ومع الظلام لم يعلم حمدان هل حقًا انتشر الشيب بتلك السرعة في شعر مسعد، أم أنها ذرات تراب علقت بين خصلاته، اقترب حمدان في

بطء، كان مسعد نحيلًا للغاية، ولكن بمجرد النظر أدرك حمدان أنه فقد نصف وزنه تقريبًا في تلك الفترة القصيرة.

تنحنح حمدان ففتح مسعد عينيه، ثم قال :

" السلام عليكم ".

فتح مسعد عينيه، و نظر له في شرودٍ ولم يرد ، كانت عيناه جاحظة،والهالات السوداء تحيط بها بوضوح، مما جعل حمدان يرتبك، كانت نظرات مسعد زائغة، وكأنه يرى شيئًا ما غير مرئي، أو لا يرى شيئًا على الإطلاق ، تساءل حمدان في داخله هل جُنَّ مسعد؟

نفض رأسه وهو يحاول استجماع نفسه مرة أخرى، وقال:

" ماذا بك يا صديقي، ماذا تفعل في نفسك؟"

تنهَّد مسعد، ثم أشار لحمدان أن يجلس بجواره وهو يقول في شرودٍ:

" جميعكم تعتقدون أنني جُنِّنت، ولكني أقسم أن عقلي كما هو، ولم يمسسني الجنون ".

جلس حمدان مستجيبًا لرغبته وهو يقول:

" يا صديقي، ما حاجتك أنت بتلك المساخيط، وكيف لشخص مثلك أن يصدق الدجالين؟"

رد بنفس الهدوء والنظرة الزائغة:

" الأجانب يشترونها مهوسون بها، تمثال واحد جعل محمدين بن عابد يشتري أرضًا، ويبني بها معملًا صغيرًا للسكر وطاحون، فما بالك بمقبرةٍ كاملة؟"

مط حمدان شفتيه في أسفٍ قائلًا في استنكار:

" وما الذي أدراك أن تحت دارك مقبرة؟"

انتفض مسعد لأول مرة منذ جلس حمدان، ونظر له بشراسة وهو يصرخ قائلًا بعصبية:

" يوجد مقبرة يا حمدان، أنا أعرف".

رفع حمدان كفه، وربَّت على كتف مسعد وهو يقول:

"حسنًا حسنًا، انا لا أكذبِّك، ولكني أودُّ أن أعرف فقط ".

عاد مسعد ليستند بظهره على الحائط وهو يقول:

" كنت أعمل في القاهرة في حسابات أكبر محل للبقالة كما تعلم، كان زبائنه من الإنجليز والإيطاليين على وجه الخصوص، كان واحدٌ من هؤلاء الإنجليز صديقًا لي، أجدت أنا لغته، وأجاد هو لغتنا، وكان ودودًا يحب ان يتجاذب معي أطراف الحديث كلما جاء، خاصةً وأنه يتحدث العربية بلهجة أهل الصعيد، كان يعمل في حملات التنقيب عن الآثار في مصر في الجنوب، لذلك تعلَّم العربية هناك،

ونطقها بلهجة واحدة من قرانا، وعندما ترك ذلك العمل كان قد أحب مصر، وقرر الاستقرار بها، كان يخبرني دائمًا أنه أحب بلدتنا، خاصةً قريتنا الصغيرة عندما زارها، وأنه تمنَّى أن ينقب بها، وأن يومًا ما سوف يعود، كان يتغنى بروعة تلك الآثار والمنحوتات المصرية، وكان كذلك يخبرني بتلك الأرقام الضخمة التي يدفعها الإنجليز والفرانسين مقابل تلك القطع، توطت صداقتنا حتى بدا يدعوني لسهرات الأصدقاء في منزله، حضرت عدة سهرات للعب البوكر والكون كان، حتى جاء ذلك اليوم حين دعاني لسهرة قال أنها خاصة بعد انتهاء العمل، وبالفعل ذهبت إليه، كان المجلس جميلًا، لعبنا بعض ألعاب الورق مع أصدقائه كما تعودت، ألا أنهم كانوا أشخاصًا جدد للمرة الأولى، أراهم عنده، أعلم أن وجودي بينهم والتمادي في لعب الورق لم يكن بالفعل الصائب، ولكني أحببت الانتماء لهؤلاء القوم اللذين ظننتهم راقين متحضرين منفتحين على الثقافة الحديتة، خاصةً أن أحاديثهم كانت دومًا تزخر بالمناقشات الأدبية واالفلسية والسياسية أحيانًا والسهرات، ذلك اليوم حين احضر أحدهم زجاجه خمر قائلًا أن عمرها مائة عام، ورغم احتفاظه بها ميراثًا من جده إلا أنه قرر فتحها اليوم معهم بمناسبة الاتفاق الجديد، لم أعلن بالطبع عن أي شيء يتحدث إلا أنني لم أهتم، ويبدو أن ذلك الخمر كان قويًّا؛ لأنه بمجرد أن احتسى كل منهم عدة كؤوس لعب الخمر برؤسهم بشدةٍ، وتوالت الهزائم على رأس صاحبي صاحب الدعوة، فتوترت الجلسة، وبدأت أصواتهم ترتفع،

ثم بدأ أحدهم يتحدث عن الخرائط والمقبرة السرية، وطالب صاحب الدعوة بإخراج ما بخوذته مهددًا إيَّاه بمسدس صغير أخرجه من طيات ملابسه، وخرجت الوحوش الكامنة داخلهم، بدأوا أولًا في تبادل الصراخ والشتائم بلغتهم الأجنبية، ثم بدأ التشابك بالأيدي بينهم، ما فهمته من السباب والكلام المتبادل أن الرجل يريد لك الورق عوضًا عن الدين، ولكنه صاحبي رفض، في النهاية خرجت رصاصة استقرت في صدر صاحبي، تجمَّد الموقف كله لثوانٍ ثم دب الهرج والمرج، كلا منهم هرب بنفسه، ووجدت نفسي فجأة بمفردي بجوار الرجل الذي كان يحتضر، حاولت إنقاذه ولكنني لم أستطع، آخر كلمات خرجت منه لاهثة متقطعة كانت بعربية، جاهد لتكون واضحة بين حشرجة أنفاسه (بلدك .. فوق مقابر فراعنه..).

ثم أشار بإصبع مهتز إلى مكتبه، وقال بنفس الأنفاس اللهثة (كنت .. أتمنى أن تساعدني .. كتاب غلافه ذهبي)

لم يكن من الصعب عليَّ إيجاده ".

زفر مسعد زفرةً قوية من أعماق قلبه، ثم اعتدل أخير، ونظر ناحيتي بالأنظار اللزائغة نفسها قائلًا:

" فى داخل الكتاب كانت هناك عدة برديات تم تغليفها معًا بعنايةٍ فائقة مع ترجمة تلك النصوص للغة الإنجليزية، ومعهم بعض

الخرائط التي رُسِمت يدويًل لمناطق متفرقة في قريتنا، بالطبع خبأت الكتاب جيدًا في طيات ملابسي، وفررت هاربًا بعد أن مات الرجل، واكتشف الجيران الجثة، ولكن لم يستدل على أحدٍ؛ فكان واضحًا من حالة الأثاث والورق الملقى في أرجاء المكان، وكذلك زجاجات الخمر أن خلافًا حادًا نشب هنا بين مجموعة من السكارى لاعبي القمار، وبعد تحقيقات لعدة أيام تم إغلاق القضية؛ ففيما يبدو كان واحدًا من المتورطين رجلًا من كبار رجال الإنجليز، وبالتالي فقد استطاعوا إغلاق القضية، وبمجرد أنتهاء تلك القصة فللت عائدًا إلى هنا، وانكفأت أيامًا على دراسة تلك الخرائط، ومحاولة ترجمة بعض الكلمات الأجنبية التي حوتها ترجمة البرديات، وتمكنت بالفعل من ترجمة عددًا منهم حتى ذلك اليوم حين قابلنى ذلك الرجل فى السوق".

استند حمدان بمرفقيه على ركبتيه وهو يقترب من وجه مسعد، لم ترمش عينه وهو يتابعه يكمل سرد قصته، لذلك حينما صمت مسعد ثوان لالتقاط أنفاسه لم يستطع حمدان الصبر، وقال له بسرعةٍ:

" وماذا قال لك ذلك الرجل؟ "

تنهد مسعد، ثم أكمل قائلًا: " كنت أسير بين الباعه حين نظر لي بهيئته الغريبة وجلبابه المتسخ، وتلك السبح الخضراء الطويلة التي تحيط معصمه طويلًا ثم أشار لي، في البداية توجست منه خيفة،

ولكن في النهاية اقتربت منه، فماذا يمكن أن يخيفني من رجل كهذا، حين اقتربت منه قال لي (ذلك القط ذو العينين السماويتان.. في الورقة الصفراء .. يموء تحت الهلال في غرفتك لو أخرجته فتحمل مواءه".

اتسعت عينا حامد في دهشةٍ وهو يقول:

" أي قط؟ الرجل يبدو مجنون يا مسعد".

رد مسعد بالهدوء ذاته:

" هذا ما أرعبني، فتلك الكلمات المجنونة كانت تمس الواقع بشيء من الصواب، في إحدى تلك البرديات كانت تحكي عن قط مقدس، وصفت عيناه أنها جاءت من السماء، ولا أدري معنى الوصف، تحدثت البردية عن عظمة ذلك التمثال وأهميته، وعن اللعنة التي أصابت مَن حاولوا سرقته، ولم تهدأ تلك اللعنة حتى تم دفنه في مقبرة خُصِّصت له وحده ".

شهق حمدان فى دهشةٍ، ثم استدرك قائلًا:

" ومن أين لذلك المخبول أن يعلم؟ هل أخبرت شخصًا ما؟ "

هز مسعد رأسه بالنفي وهو يقول:

" ولا حتى والداي، أنتَ أول من يعلم".

صمت حمدان لثوانٍ، ثم قال:

" ربما كان يلقي الكلمات جزافًا.. معظم القطط لها عيون ملونة بين الأزرق لون السماء والأخضر وغيرها ".

هز مسعد رأسه بقوه وهو يقول:

" لا أنكر أنني شككت في الأمر، ولكن قررت أن أجرِّب وأحفر".

قال حمدان بثقةٍ بعد أن لاح أمل أخيرًا في أن يجد حجة يقنع بها مسعد بعدم جدوى كل ما يفعل:

" ولم تجد شيئًا، أنت تحفر منذ ثلاثة أشهر كامله ولم تجد شيئًا".

ضحك حمدان بجانب فمه في سخريةٍ، ثم قال:

" ومَن قال أنني لم أجد شيئًا؟"

نظر حمدان له طويلًا، ثم قال بترددٍ:

" الحج رضا أخبرني بذلك .. ثم أن وجدت شيئًا لماذا تستمر في الحفر؟"

نظر له مسعد في عينيه نظرةٍ بدت غريبة، وقال له:

" لأنني لم أصل بعد لبوابة تلك المقبرة .. ولا أريد تدميرها في محاولة فتحها".

لم يفهم حمدان مقصده، فقال:

"وماذا أن هشمت أي جزءٍ ومررت من خلاله؟"

رد مسعد ولازالت تلك النظرة الغريبة تعلو وجهه:

"لا أريد أن تحل لعنة القط عليَّ كما قالت البردية".

وبدون مقدمات مد مسعد يدة للحسيرة بجواره، وأخرج من تحتها خنجر صغير، وغرسه حتى المقبض في قلب حمدان".

.....

انتفض إسماعيل عند تلك النقطة وقال بهلع :

" هل قتل مسعد جد والدتك حمدان حقًا؟"

هز أحمد رأسه بأسفٍ مصطنع وهو يقول:

" رغم ضآلة جده مقارنة بقامة جدي حمدان الفارعة الضخمة".

ضحك حسين بتهكم، وقال:

" حسنًا، جن الرجل هذا واضح.. جن بسبب تمثال لقط لم يجده، وقتل جدك الكبير، هل هذا مبررك لتخاف القطط؟"

نظر له أحمد بنظرةٍ جانبية ذات معنى وهو يقول:

" أنا لم أنتهِ بعد؛ فالبداية الحقيقية لقصتي لم تحن بعد".

.....

بعد أن قتل حمدان رأى مسعد قط أسود مارًا بجواره.. ابتسم له طويلًا، ثم سار أمامه، فما كان من مسعد إلا أن نهض واقفًا، وحمل جثة حمدان – رغم ضخامتها الشديدة– بسهولة شديدة وغير منطقية، وهو يسير بها وراء القط، إلى أن قاده القط لمنطقة خالية من الناس، ووقف بجوار حفرة كبيرة، ثم ألقى جثة حمدان داخلها، ووارى عليها التراب، ووقف شامخًا للحظات مغمض العينين يغمغم بلغة غير معلومة، وفي الحين نفسه تحول مسعد إلى حمدان.

كان اختفاء مسعد من القرية غير مبرر.. ولكن الأغرب بالنسبة للحج رضا هو أن حمدان بدأ يحفر في داره كالمحموم، لدرجة أنه طرد زوجته وأبناءه من المنزل، وحلت زوجته ضيفة في منزل والدها، ولم تفلح كل محاولات الصلح على مدار شهر كامل، فقد كان حامد وكأنه جن تمامًا، لا يرد على أحد، ولا يفتح بابه، ولا يرعي أرضه.

شهر كامل وحمدان يحفر كالمحموم ليلًا ونهارًا، وحتى في تلك الأوقات التي يخرج فيها من داره لإخراج اكوام التراب كان يسير شاردًا ذاهلًا، وكان الحج رضا يبكي ويبحث عن ولده الغائب تارة، ويجلس أمام أبواب حمدان يحاول إقناعه بالتحدث معه تارة.

ولكن في نهاية الشهر تغيَّر الوضع فجأة، حين وجد مسعد المتحول لجسد حمدان بوابة تلك المقبرة أخيرًا وفتحها.

كانت المقبرة مذهلة، رسوم ونقوش ملونة على الحوائط، تبدو وكأنها رُسِمت البارحة، كانت هناك صور واضحة لصخرة كبيرة تهبط من السماء، ثم صور توضِّح حجم الدمار الشامل الذي أحدثته تلك الصخرة، وصور لأشخاص تكسر تلك الحجارة، وأخيرًا على تلك الواجهة كانت صورة توضح انفلاق تلك الصخرة لجزئين، وفي قلبها استقر حجرٌ أزرق لامع يبدو كحجر كريم غير معروف.

على الجانب الآخر كانت الرسوم توضِّح عملية نحت ذلك التمثال، ووضع عينين له من ذلك الحجر الأزرق الغريب، ثم رسومات غير مفهومة لأناس يسيرون وكأنهم مغيبين وعينيهم بيضاء اللون تمامًا.

لم ينتبه مسعد لكل ذلك، بل كان يسير وكأنه دخل تلك المقبرة مرات ومرات من قبل، وفي نهاية المقبرة كان التمثال شامخًا، تمثال صغير بحجم قط حقيقي، أسود اللون من البازلت، ويحيط رقبته سوار ذهبي اللون .. أما عينيه فكانتا زرقاوين، تشعان بضوء غ، وهناك أمام ذلك التمثال خر مسعد ساجدًا، ثم اعتدل وجلس على ركبتيه، وراج يتحدث للتمثال بتلك اللغة الغريبة مرة أخرى.

في تلك الليلة اختفى جسد حامد، وعاد لمسعد جسده مرة أخرى.. ولكن لم يعد لعقل أي منهما مكان في رأسه.

على مر شهر كامل لاحظت القرية أن حمدان اختفى، وبائت كل محاولتهم باقتحام منزله بالفشل، حتى عن طريق سطح ذلك المنزل؛ فكل مداخل المنزل مغلقة بالأحجار، ولم يستطع أيٌّ منهم

تكسيره، ولا حتى وهم مجتمعون، كان ذلك لغزًا شديد التعقيد، حيَّر أهل القرية كلها، ولكن لم يشغل بالهم طويلًا؛ بسبب ما حدث بعد ذلك.

على مدار شهرٍ آخرَ كان رجال القرية يختفون تباعًا، ولكن قبل اختفاء كل منهم كانت تصيبه تلك الحمى الجديدة بالحفر في منزله، وإرسال زوجته وأبنائه لأهلها، ولكن مع وجود فارق؛ فكل منهم بعد فتره يختفي تمامًا، وتعود زوجته فتستطيع فتح منزلها لتجد حفرة كبيرة في أرض المنزل، ورسوم على جدران تلك الحفرة، ولكن تبقى الحفرة خالية.

في ذلك الشهر اختفى أربع رجال، ولكن في الشهر التالي، اختفى عشرة رجال آخرون.. وكان الوضع مريبًا حتى رجال الشرطة – الذين تم إبلاغهم بعد الاختفاء الخامس عشر – وقفوا حائرين، لا توجد جثث.. والحفر خالية من أي شيء عدا الرسوم .. كما أن منزل حمدان المغلق لا يوجد به سبب يدعوهم لاقتحامه.

كان اللغز محيِّرًا، إلا أنه بمجرد أن أصابت تلك الحمى الغريبة رجلًا جديدًا، قررت الشرطة أن الوقت حان لحل لغز ما يحدث، بأدوات بدائية وأفكار بسيطة، كان تتبع الرجل صعبًا، خاصةً مع سرعته في الاختفاء في كثير من الأيام، حاولوا التحقيق معه إلا أنه لم ينبس ببنت شفاة، وكان صامتًا ذاهلًا زائغ النظرات بشكل كبير، اضطرهم في النهاية لتركه يعود لمنزله، فلا يوجد في القانون – آنذاك - ما يمنع الرجل من حفر منزله، وأخراج أي آثار تحته بل وبيعها إن شاء.

استمر الرجل في الحفر، واستمر رجال الشرطة يوميًا في مراقبته لمدة خمسة أيام، كان يخرج ليلًا كل يوم ليخرج الرمال الناتجة من الحفر، إلا أنه في اليوم الخامس لم يظهر الرجل، تأخر ظهوره ساعتين كاملتين استرعت انتباه رجال الشرطة، ودفعتهم لاقتحام المكان، وبعد القليل من البحث وجدوا الحفرة والرسوم نفسها على جانبيها، وفي نهاية الغرفة تمثالًا بازلتيًا أسود، لقط يقف شامخًا، وحول عنقه سوار فضي اللون.

كانت الدهشة من نصيب رجال الشرطة الذين اقتحموا المقبرة ، فالجاثي أمامهم لم يكن الرجل نفسه الذي تم التحقيق معه، والذي هو صاحب الدار، كان شخصًا آخر تمامًا، يبدو أقرب لوصف ذلك الشاب الذي أبلغ والده الحج رضا عن اختفائه.. كان هو مسعد، ولم يطل الأمر لأكثر من ثوان، لم يستوعب خلالها الرجال الموقف كاملًا حين تحرك مسعد، وبدأ في ضربهم بقوة جبارة، لا تتناسب أبدًا مع حجمه الضئيل، وسريعًا وقبل أن ينهض أي منهم، كان مسعد قد تناول التمثال وهرب به، وكانت دهشة رجال الشرطة خارج المقبرة كبيرة حين رأوا مسعد خارجًا بالتمثال وحده، ويهرول مسرعًا، فما كان منهم إلا أن بدأوا بإطلاق النار، وكان واضحًا أمامهم أن عدة طلقات قد أصابته إلا أن ذلك لم يوقفه، وإن أبطأ من سرعته، فجعل مطاردته أمرًا ممكنًا.

.....

مطاردة الرجل لم تحل اللغز وراء كل تلك الاختفاءات، ولكنها قادتهم إلى منزل حمدان، لم ينتظر رجال الشرطة بالطبع، فقد اقتحموا المنزل، في البداية بائت محاولاتهم بالفشل إلا أنهم في النهاية – وبعد عدة ساعات – استعانوا بمساعدة أهل القرية بنخلة عملاقة - ضحى بها أهل القرية رغ قوتها وحجمها الكبير لإنقاذ أبنائهم من المصير ذاته – لكسر تلك البوابة، وفي الداخل كانت الحفرة نفسها التي وجدوها في المنازل السابقة، وإن أوصلتهم لمقبرة أكثر اتساعًا، وهناك فى داخلها كان مسعد ملقى أرضًا، والدماء قد كونت بركة صغيرة تحته .. وفي النهاية كان هناك ستة عشر قطًّا بازلتيًا، واحدًا منهم في المنتصف يحيط عنقه سوارٌ ذهبي، أما الباقين حوله كان يحيط أعناقهم أساور فضية اللون، وجميعهم تلتمع عيونهم الزرقاء بضوء باللون نفسه .. كانت تلتمع بشدة وبمجرد دخول الرجال للداخل بدأت تلك العيون تلتمع بشدة وتتألق إلى أن كونت حولهم فقاعة من الضوء الأزرق أحططهم جميعًا، وبدأوا واحدًا تلو الآخر في قول كلمة واحدة بلغة غير مفهومة، وكلما قال أحدهم تلك الكلمة رفع يده لأعلى، انطفئ تألق عين واحدٍ من التماثيل، في نظرة سريعة أدرك الضابط المصاحب لهم ما يحدث، فصرخ بالواقفين خارجًا، سدوا تلك المقبرة بسرعة.. وفجروا ذلك المنزل، ارتبك الواقفن خاصةً مع وجود الضابط نفسه

في الداخل، وبصحبته عدد لا بأس به من الجنود إلا أنهم أمام تكرار صرخاته، رضخوا لهم سريعًا، فسدوا المقبرة بمن فيها، وهدموا المنزل فوقها.

.....

عندما صمت أحمد كانت عيون الجميع تنظر تجاهه بلهفة لإكمال ما حدث، فهز كتفيه في لا مبالاة قائلًا:

" هذا كل ما حدث ".

نظر له حسين رافعًا إحدى حاجبيه قائلًا:

"ماذا! تلك قصة غير واقعية لا تدخل عقل طفل صغير ".

نظر له أحمد نظرةً طويلة، ثم قال بعصبيته المعهودة:

" ولما أكذب أنا عليكم ؟"

تدخَّل وائل قائلًا بهدوء:

" لا نقصد تكذيبك، ولكن هل هناك دليل على ذلك "

هز أحمد رأسه قائلًا بنبرةٍ أهدأ:

" بالطبع .. عائلتي تحتفظ بعدد من جريدة قديمة ذكرت تفاصيل القضية بالكامل، الأسبوع القادم اطلعكم عليا ".

تبادلوا جميعًا نظرات متوتره حتى قال حسين مرة أخرى:

" لو كانت حقيقة لوجدنا لها أثرًا على مواقع الإنترنت ".

هز أحمد كتفيه العريضين قائلًا:

" القصة لا أثر لها على جميع المواقع، حتى بعد أن وجدوا تلك المقبرة الجماعيى التي ضمت جثث كل المختفين، لم يعيدوا نشر أي شيء مرة أخرى عنها".

هم حسين بالاعتراض مرة أخرى، فسبقه إسماعيل قائلًا:

" أنا أصدِّقك تمام يا أحمد، ولكن أخبرني من هل وجدوا المختفين أو علموا لما حدث كل ذلك ".

تهلل وجه أحمد وقال:

" نعم .. لقد وجدوا الكتاب الذهبي في منزل عم رضا، وحين ترجمه علماء الآثار وقتها، قالوا أن ذلك القط كان لعنة حقيقية.. هو وكل أتباعه اللذين صنعت عينهم من الحجر نفسه .. قالوا أنه كان يسلب عقول الناس، ويجعلهم تابعين له حين يجتمع مع باقي أتباعه من التماثيل، ثم تنتشر أعمال الشر من قتل ونهب وغيرها، وما فعله هو أنه سيطر على عقل مسعد، وجعله يجمع له أتباعه المنتشرين في كل مكان، حتى المختفين لم يدركوا ما حدث لهم إلا حين نبش أحد الذئاب الحفرة، وأخرج جزء من آخر المختفين، فوجد أهل القرية تلك المقبرة الجماعيه للمختفين".

أطلق القط مواءً فجأة، جعلتهم جميعًا ينتفضون، ثم أطلقوا ضحكة عالية على الرعب الذي انتابهم، كان الجو باردًا حقًا، فرفع إسماعيل يده مشيرًا لزقزق، مصاحبًا ذلك بقول:

" كاكاو ساخن لنا جميعًا يا زقزق، وأعد لنفسك كوبًا معنا ".

ثم نظر لهم قائلًا:

" هل تعتقدون أن تلك قصة مرعبة؟ ما رأيكم أذن أن أقصَّ عليكم قصة حدثت لجدي.. وعاصرتها أمي؟"

انتفخت أوداج إسماعيل في زهو كعادته، وتلونت بشرته البيضاء بلون أحمر اعتادوه كلما تحدث عن عائلة أمه، التي تنحدر من الأسرة الملكية قائلًا بزهوٍ:

"جميعكم تعرفون أن أسرة أمي تتنتمي لأسرة محمد علي، وأنهم كانوا من أثرياء العصر البائد".

ضحكوا جميعًا بصوتٍ مرتفع، احمرت له أذن إسماعيل قائلًا بغضبٍ طفولي اعتادوا عليه:

" حسنًا، لن أحكي لكم؛ كلما ذكرت عائلة أمي انفجرتم ضاحكين".

قال وائل ببساطة من بين ضحكاته:

" لقد سمعنا القصة مائة مرة يا إسماعيل، نحن ندرك أنكم من أثرياء العصر الماضي، وحتى لو لم نكن نعلم، تكفينا زيارة واحدة لذلك القصر الصغير الذي تقطنه، أو نظرة لملامحك التي تشبه الملك فاروق لنعرف ذلك ".

التمعت عينا إسماعيل في زهوٍ مرة أخرى، فحاول الأصدقاء منع ضحكاتهم، ولكن ما أن تلاقت الأعين حتى انفجروا جميعًا ضاحكين مرة أخرى، فنهض إسماعيل في عصبيةٍ واضحة، ولكن إسلام وقف أمامه واحتضنه؛ ليمنعه من الرحيل قائلًا من بين ضحكاته:

" أعدك أن نكف عن الضحك، ولكن بالله عليك يا صديقي تحدَّث دون أن تذكرنا أننا أحفاد عم عبده السفرجي".

ابتسم إسماعيل لدعابة صديقه الذي قلما يلقي دعابة، وعاد جالسًا وهو يقول:

" حسنًا، سوف أحكي لكم، ولكن بلا ضحكات".

وضعوا جميعًا أيديهم على أفواههم في إشارةٍ لتنفيذ طلبه، وبدأ إسماعيل في قصته.

المزاد

شابٌ في مقتبل العمر واحدا من باكوات العصر البائد، بالطبع لم يحصل على لقب البكاوية لإنجازاته المذهلة، أو لعمله في إدارة أملاك والده أو لمساهمته في المجتمع، ولكن فقط حصل على اللقب؛ لأن والده باشا فأصبح هو بالتبعية عماد بك، رغم كونه من سلالة العائلة الملكية إلا أنه لم يشبههم على الإطلاق، فعلى عكس معظمهم لم يكن متأنقًا ممشوقًا، بل كان بدينًا ممتلئ عريضَ الجسد، وإن كانت ملامحه التركية وبياض بشرته إشارةً واضحة لانتمائه لتلك الأسرة، لم يهتم أبدًا بإدارة أملاك والده، ولا حتى بالعمل الخيري، بل كان متخصصًا في أنفاق تلك النقود بهوايته الغريبة في جمع التحف النادرة من أنحاء العالم وصالات المزاد.

شابٌ مثله لم يعتد صعاب الدنيا، ولم يحتَط لغدرها، كان صادمًا له قيام الثورة ثم مصادرة أملاك والده تباعًا، ثم موت والده قهرًا من جراء وضع تلك الممتلكات تحت الحراسة، خاصةً أن كل ما حصل عليه الرجل كان فيلا الإسكندرية الصغيره فقط للإقامة، بدون حرية التصرف بها ومخصصات مالية تُصرَف له كل شهر لا تكفيه بالطبع بعد أن تعوَّد وأسرته على الرفاهية والتدليل.

كان عماد في الأصل عصبيًا مدللًا لا يُرفَض له طلب، وكان عاشقًا للطعام، ثم زاد على ذلك حدة المزاج وتقلبه بعد مصادرة أملاكه،

ولذلك فحينما قرر الزواج أخيرًا كان زوجٌ لا يُحتمَل، ولكن على الرغم من ذلك أحبته زوجته، بل إنها هامت به عشقًا، كانت تراه حلمًا قديمًا لأمير من سلالة أمراء يخطفها على حصانه الأبيض، فتخرج لسانها لأقرانها، فما كان منها إلا أن زادت ، وعاملته وكأنه آله من ألهة الأوليمب، مما زاده عصبيةً ومزاجيةً وحدةً في التعامل معها.

كانت الزوجة الودودة المحبة تعتقد أن زوجها منزعج عصبي لمصادرة أملاكه، خاصةً أن زواجهم أصلًا تم بعد مصادرة تلك الأموال بعدة سنوات بناءً على رغبة والدته وإلحاحها عليه، إلا أنها اكتشفت بعد فترة وجيزة أن طبع الرجل حاد وعصبي بسبب تدليله المفرط، وعدم رغبته في أداء أي عمل، حتى بعد أن عاد جزء من الأملاك المصادرة للرجل لم يجعله ذلك هادئ حنونًا كما تمنَّت بل على العكس، فقد ذاد الأمر من عجرفته ونرجسيته المفرطة في التعامل معها، بل وما ذاد الطين بلةً أن الرجل أصبح يتعامل معاها على أنها واحدة من عامة الشعب في حين هو أميرٌ من سلالة الملوك والأمراء، ومثلها لم تكن تحلم أن يتزوجها يومًا، على الرغم من كونها ابنة أسرة ميسورة نالت تعليمًا محترمًا مقارنة ببنات جيلها، بل وجميلة أيضًا، وعلى الرغم من هذا كله لم يقل حبها له أو صبرها في التعامل معه يومًا.

عودة أملاك الرجل له كان بمثابة معجزة تتحقق، وكما نتعامل نحن مع المعجزات كان من المفترض أن يصون الرجل تلك المعجزة،

ويحمد الله عليها، ويسعى جاهدًا للحفاظ على تلك الأموال، إلا أنه لم يتعامل مع الأمر على هذا النحو، بل أنه سعى جاهدًا لتعويض سنوات الفقر التي حرم فيها من أملاكه، وبدا في السهر، واتغمس في مُتع مُحرَّمة، بل وأقبل على تناول الطعام بكميات كبيرة، مما جعل وزنه يتضخم للضعف على أقل تقدير، فأصبح منتفخا ك بالون هوائي.

وظلت نادية زوجته على تحملها وجلدها تدعو له بالهداية وصلاح الأحوال في كل صلاة تصليها، ومع كل صدقة تتصدق بها لفقير أو محتاج.

لكن عماد لم يكن يحيا مع زوجته في العالم نفسه، بل كان كارهًا ساخطًا لكل شيء حوله حتى هي وأبنائهم، كان يشعر أن كل تلك الأمور قد فرضت عليه فرضًا أثناء فترة الفقر، وأنها تستحق أن تمحى من الوجود، ورغم أن زوجته كانت صالحة، وأبناؤه كانوا في غاية الجمال يشبهون والدتهم شكلًا وطبعًا، إلا أنه حتى لم يكن يلتفت لهم، أو يحاول تعويضهم، أو الاعتذار لهم على عودته مخمورًا من سهراته، أو حين تصل لزوجته واحدة من صوره في تلك الليالي مع عشيقات مائعات، رغم أنها كانت تترك له تلك الصور على مكتبه، إلا أنه لم يكن يلقي لها بالًا على الإطلاق، وفي داخله كان يتمنَّى أن تتركه وتعود لمنزل أهلها، وليرسل لها ما تحتاج من مصروفات بشرط ألَّا يرى وجهها مرة أخرى أمامه.

وجاء اليوم الذي تمنَّاه سريعًا حين جلب واحدة من تحفة الغالية من مزاد في صالة اعتاد ارتيادها منذ زمن بعيد، وبلا قصد ارتطمت بها ابنته، وهي تلهو فهشمتها، في هذا اليوم كان عماد يعاني من ألم في رأسه، وكأن هناك مطرقة تعزف لحنًا صاخبًا في جنبات رأسه بفعل الكمية الكبيرة التي تناولها من الخمر في الليلة السابقة، ولهذا فقد ثار بشدةؤ وظل يصرخ في وجه ابنته، حتى أن الفتاة الصغيرة تبوَّلت على نفسها من فرط خوفها، وظلت ترجف في مكانها ممتقعة الوجه، وحين حاولت نادية تهدئة الموقف خوفًا على ابنتها بهروعها إليها وضمها لصدرها، زادت ثورته، وضربها هي وابنتها معًا، ولأول مرة تثور نادية لكرامتها، وتقول من بين عبراتها:

" فوضت الأمر فيك لله.. الله المنتقم".

ثم – ولأول مره في حياتهما معًا– جمعت كل ما يخصها ويخص أبنائها في القصر، وعادت لمنزل والدها.

كان ذلك مريحا جدًّا لعماد حتى أنه تنفَّس الصعداء حين تأكد أنها بالفعل لملمت كل ما يخصها في القصر ويخص أبنائها كذلك، ومنذ اليوم الأول لمغادرة نادية انتقلت السهرات إلى قصر عماد، كان الأمر بالنسبة له كأن محتلًا رحل تاركًا الأرض لأصحابها، لذلك كانت ساعدته تفوق أي وصف، كذلك كان بزخ سهراته التي أصبحت يومية مسار حديث الجميع، إلى أن جاء ذلك اليوم، في ذلك اليوم كان عماد يبدو صاخبًا مرحًا أكثر من المعتاد، بل أن سهرته في ذلك

اليوم ازدادت بزخًا عن كل الليالي السابقة بذلك البوفية الذي حملا أصناف أجنبية أحضر لأجلها عددًا من الطباخين الأجانب، وزجاجات الخمر التي كان يتباهي بكونها مر على تعتيقها سنوات تفوق عمره، كان بزخه مفرطًا، مما دفع رجلًا ممتلئ الجسد مثله ذا شارب رفيع مبروم، ووجه يضخ بالاستغلال والطمع على الاقتراب منه قائلًا بمرحٍ مصطنع:

" حفلٌ فاخر ياعماد بك، وكذلك قصرٌ مليء بالتحف يصلح كصالة مزاد راقيه".

راقت المجاملة لعماد، فرفع كأسه إلى فمه وجرعه دفعة واحدة في زهوٍ، ثم قال في برصانه:

" تلك القطع تم تجميعها على مدار سنوات، ناهيك عما سرقه العمال أثناء فترة الحراسة".

مرر الرجل أصابعه في خصلات شعره الناعمة وهو يقول:

" ولكن تلك القطعة الكرستالية التي اشتريتها من صالتي منذ عدة أيام كانت لتضيف كثير للمكان لو أنك وضعتها هنا ".

قال جملته وهو يشير لركن معين بجوار مرأة ضخمة في ركن القاعة الكبيرة.

زفر عماد زفرةً قوية وهو يشير للخادم بكوبه الفارغ؛ ليمنحه غيره وهو يقول بحنقٍ:

" بالفعل وضعتها هناك، ولكن ابنتي اصطدمت بها وحطمتها تلك الغبية".

رفع الرجل حاجبه في دهشةٍ وهو يقول باستنكار:

" لقد دفعت فيها ثروة بالفعل، ألم تعد صالحة نهائيًا؟"

هز عماد رأسه بالنفي، فبالفعل القطعة كانت قد تحولت لشظايا يستحيل حتى معها محاولة حتى تجميعها.

غمز الرجل بعينه وهو ينحني على أذن عماد قائلًا بصوت منخفض ينم عن سرية الكلام:

" سوف أعوضك عنها غدًا، في صالتي بعد منتصف الليل مزاد سريًّا على قطع شديدة الندرة، وسوف أبيع لك ما تريد منها بسعر مناسب، وإن شئت حتى أن تختار ما تريد قبل بداية المزاد ".

راق الكلام لعماد، ورفع روحه المعنوية بسرعة فكرة التمييز التي خصه بها الرجل، وغاب عنه أنها الجملة نفسها التي قالها لكل المدعوين للمزاد، فقال وقد عادت الابتسامة ترتسم على وجهه:

" يروقني أكثر المنافسة على ما أريد من القطع، ولو أعجبتني القطع تأكد من أنني سوف أترك لك مكافئة جيدة للغاية ".

أحنى الرجل رأسه وهو يرفع يده إليه ويخفضها مرارًا وتكرارًا في حركة مسرحية مبالغ فيها وهو يردد:

" لحم أكتافنا من خيرك يا باشا.. مكافئتي نلتها برضاك ".

ومالم يعلمه الرجل أن عماد كان أكثر من راضٍ، مزاد سريًّا بقطع نادرة الوجود ما أكد أشياء لم ولن يقتنيها غيره، وربما بالفعل تعوضه عما هشمته الفتاة الحمقاء، حتى أنه من فرط الحماس لم يستطع أن ينام نومًا عميقًا، كطالب في الليلة السابقة لرحلة مدرسية مشوقة، كان يتقلب على فراشه وكأن السرير به جمرٌ من نار، لا يطيق النوم والراحة عليه، بل أنه ظل شاردًا صامتًا طوال اليوم التالي في انتظار منتصف الليل حتى يذهب لصالة أتيلا ليرى تلك القطع النادرة.

كان واضحًا منذ خطا عماد أرض القاعة أن المزاد سريًّا للغاية، فعدد الحضور كان ضئيلًا مقارنة بالعدد في الصالة نفسها في المزادات الآخرى، كان يبدو على الحاضرين أن انتقائهم تم بعنايةٍ فائقة، مما يدل على أن ذلك المزاد يعرض مجموعة ليست فقط نادرة، وإنما ربما تعرض صاحب المزاد لمسآئلة قانونية محتملة.

زادت الأجواء السرية من حماس عماد، خاصةً بعد أن خرج الرجل ذو الشارب الرفيع محييًّا ضيوفه بكلمات مقتضبة قائلًا:

" أهلًا ومرحبًا كم جميعًا، اليوم نعرض مقتنيات فيلا حكمت هانم، تلك المجموعة النادرة كانت في بدروم القصر لسنوات بعد وفاة حكمت هانم وبيع القصر، يبدو أن الوَرَثة لم ينتبهوا لها إلا حين قرروا أن يعيدوا توضيب القصر قبل الانتقال له، وقد وصلت لي تلك

المجموعة النادرة والغريبة، والتي جمَّعتها حكت هانم من جولاتها حول العالم وحتى المناطق النائية والفقيرة، أأكد لكم أن ما سترونه اليوم غريبًا وغير مألوف بالمرة، فلنبدأ المزاد".

كان حماس عماد قد وصل لذروته، لذلك كانت صدمته قاتلة حين بدأت القطع تظهر تباعًا، أي مجنون أحمق يجمع تلك المعروضات المخيفة والسخيفة!

كانت المعروضات تتمثل في رأس غزال محنط بعنايةٍ بجروح في وجهه، حرص مُحنِّطه على بقائها، عظام كف إنسان، بعض الأختام والخواتم تبدو أنها من حضارات مثل الأنكا أو بابل القديم، ولكن الأكثر رعبًا كان جثة رضيع محنطة، كانت غريبة ومخيفة للغاية، حتى أن عماد شعر بألم في معدته وبرغبة ملحة في التقيؤ، وفيما يبدو أن صاحب الصالة قد رأه وشعر بحس البائع أن الرجل لم ترق له المعروضات، وأنه لن يشتري شيئًا منه اليوم على الرغم من أن معظم الحاضرين كانوا قد زايدوا على بعض تلك القطع، لهذا اقترب بدهاء قائلًا بصوتٍ خفيض:

" عماد بك، أنرت الدنيا بحضورك اليوم، أراك لم تزايد على تلك القطع، يبدو أنها لم تنل إعجابك، وللحق أقول أنت رجل ذو ذوقٍ فريد، فبالفعل تلك القطع غريبة تخلو من الجمال، ولا أرى سببًا وراء اقتنائها".

نظر له عماد باشمئزاز قائلًا بلهجة حاول جاهدًا ألَّا تبدو عصبية:

" وإن كنت تدرك ذلك فلماذا أحضرتني؟"

غمز الرجل بعينه غمزة ذات معنى وهو يقول:

" ختامه مسك يا بيه، القطعة الأخيرة لغراب نادر محنط".

نظر له عماد بعصبية وهو يقول:

" وما حاجتي أنا لغراب محنط؟ هل أخبرك أحدهم أنني أنوي افتتاح فرعًا آخر لحديقة الحيوان في منزلي؟"

ابتسم الرجل بلزوجة وهو يقول بطريقته الناعمة:

" يا باشا لقد جلبته حكمت هانم من بلدة ما فى غرب أفريقيا من قبيلة تدعي الفودو الشهير بالسحر والسحرة، ويقال أن للتمثال قدرات خارقة، وجالبا للحظ كذلك".

كانت لهجة الرجل وإيحائاته تنم عن كونه صادقًا، لهذا بدأ عماد يقتنع، ولكنه عاد ليسأله:

" وإذا كان الأمر كذلك، فلما لا تحتفظ به لنفسك؟"

ضحك الرجل ذو الشارب قائلًا:

" وأي حظٍ أفضل من تلك الجنيهات التي سوف يجلبها لي بيعه؟"

ضحك عماد بك وقد اختمرت الفكرة في رأسه، أنه يريد ذلك التمثال، ربما يتقزز من الحيوانات والطيور المحنطة، ولكن لماذا لا يجرِّب حظه مع ذلك التمثال.

.....

المزادات بالنسبة لعماد لم تكن فقط هواية يجمع لجمع تحف نادرة ومميزة ليتفاخر بها في مجالس السهر مع أصدقائه، وإنما كانت نوع من المغامرة تضخ في دمائه إحساسًا عاليًا بالسعادة والنشوة، حضور المزاد والمزايدة على واحده من تلك القطع والفوز بها كان يمنحه شعورًا خفيًّا بالتفوق الذي افتقده في حياته الدراسية والعملية وحتى الزوجية، لذلك فما أن تعجبه واحده من تلك القطع، فإنه يحصل عليها ولو دفع مقابلها ثروةً كاملة، وهو ما حدث بالضبط، حصل عماد على الغراب المحنط مقابل مبلغ باهظ للغاية، ربما لو اشترى مائة غراب حي ما كان ليدفع المبلغ نفسه، ومما زاد شعلة المنافسة بين الحاضرين كان ترويج صاحب الصالة للقصة نفسها التي رواها لعماد، ولكن هيهات أن يحصل شخص، أي شخص على تحفة أرادها هو لنفسه.

الحقيقة التي أقرها عماد أن الغراب لم يكن جميلًا او نادرًا على الإطلاق، بل على العكس كان قبيحًا للغاية، حتى أن تحنيطه بدا

بدائيًا، ولكن ما أثار عماد نحوه أنه قد مر على اقتناء السيدة حكمت له قرابة العشرين عامًا، ورغم ذلك لم يفسد تحنيطه ولا يبدأ في التحلُّل، مما دفعه للاعتقاد بشدة في صحة ما قاله صاحب الصالة، ولهذا فقد اختار أن يظل الغراب بالقرب منه، ولكن بالطبع ليس في حجرة نومه ولا في البهو الواسع؛ حتى لا يفسد الزوق العام للمجموعة المنتقاة بعناية، والتي تزين البهو، بل في غرفة مكتبه.

وفي مكتبه اختار عماد ركن قصي للغراب؛ حتى لا يقع عليه عين الزائر إلا بعد فترة طويلة من تواجده داخل المكتب، وفي الوقت نفسه يكون قريبًا من عماد؛ لعله يجلب الحظ الجيد فعلًا.

ولم يمر سوى يومان فقط على وجود التمثال بالقرب من عماد في حجرة مكتبه حين بدأ عماد يرى المستقبل واضحًا جليًا، في البداية بدأت الرؤى تظهر له متقطعة، وعن أشياء يومية معتادة؛ فالرؤية الأولى كانت تخص شوقي الخادم حين رأه يدخل مكتبه مبتسمًا حاملًا فنجان القهوة الصباحي المعتاد قائلًا:

" صباح الخير يا بك، قهوتك الصباحية وجريدة اليوم ".

ابتسم عماد كعادته وهو يشير له أن يضعهم جانبًا على المكتب، وضعهم الرجل جانبًا، وظل واقفًا لثوانٍ دفعت عماد لرفع رأسه عن تلك الأوراق التي كان يراجعها وهو يقول له:

" هل هناك خطب ما يا شوقي؟"

كان شوقي رفيق الطفولة.. ابن عم محمد الخادم، وتربَّى بين ربوع القصر مع عماد، لذلك كان له مكانة خاصة في قلب عماد، مما شجعه أن يقول:

" أريد سلفة يا بك؛ زوجتى رتيبة على وشك أن تضع مولودنا الأول خلا ل شهر، وكنت أريد ترتيب بعض الأمور".

عاد عماد بظهره للخلف وهو يقول لشوقي بابتسامة تملأ وجهه:

" مبارك لك ولرتيبة يا رجل، هذا يعني أن رتيبة سوف تعود لعملها في المطبخ قريبًا، فقد مللت من طعامك سيء المذاق".

ضحك شوقي من قلبه وهو يقول له:

" سامحك الله يا بك، ألم يكن طعامي جيدًا للغاية قبل مجيء رتيبة؟"

ضحك عماد لكلماته وقال:

" بالطبع طعامك جيد على الدوام، ولكن ليس مقارنًا بطعام رتيبة".

ثم فتح درج مكتبه، وأخرج منه رزمةً مالية ممتلئة، ووضعها لشوقي على طرف المكتب وهو يقول:

" لن أمنحك سلفةً يا شوقي، تلك النقود جزء من هدية المولود مقدمًا".

تناول شوقي المال في امتنان حقيقي، ودعا له بطولة العمر وهداية الحال، ثم خرج.

كان الموقف عاديًا وارد حدوثه خاصةً مع اقتراب موعد ولادة رتيبة، ولكن غير العادي أنه حين التفت ليتناول فنجان القهوة عقب خروج شوقي لم يجده، وحين فتح درج مكتبه وجد المال كما هو، شعر أن رأسه سينفجر، لا لم ينم، وبالطبع ذلك ليس حلمًا.

وكاد عقله يطير محلقًا بعيدًا عنه حين دخل شوقي للغرفة معلنًا وصول القهوة والجورنال، ثم طلب السلفة، والعجيب أن السيناريو تكرر كما هو بالضبط دون تغيير، وكأنه لا يستطيع السيطرة على لسانه الذي أنطلق يردد الكلمات ذاتها.

في البداية ومع تكرار الموقف اعتقد أن الخدم يدفعونه للجنون، ولكن حين بدأ الأمر يتعلق برؤيته المسبقة لمكالمات هاتفية وزيارات لبعض الأشخاص بدأ يفطن للأمر، أنها قدرات الغراب، أنه ليس جالبًا للحظ، بل أنه يجلب لك رؤية مستقبلية عن المستقبل القريب.

كانت سعادته بالغة بالغراب خاصةً حين تعلق الأمر بسعر محصول ما كاد أن يبيعه برقم صغير، حين فاجئته رؤية عن السعر المرتفع الذي سوف يصل إليه ثمن المحصول خلال أيام قليلة، وكانت تلك الرؤية رائعة حقًا؛ فقد باع المحصول بأربعة أضعاف السعر تقريبًا،

ومن هنا بدأ عماد يثق في غرابه ثقة عمياء، وفي كل تلك الرؤى التى تحدث، والتي كانت كثيرة

وكانت الرؤى – على كثرتها - كلها تتعلق بالمستقبل، لذا كان غريبًا وغير مألوف بالنسبة له أن يرى رؤية تتعلق بالماضي، وتساءل كثيرًا هل تلك رؤية حقًا من رؤى التمثال أم أنها كابوس؟

كان يقف هناك في ركن قصي من فيلته في الإسكندرية، وعلى مرأى ومسمع منه كانت زوجته نادية التي بدت أصغر سنًا تستقبل رجلًا على الباب بملابس النوم، احتضنها الرجل بقوةٍ قائلًا بصوتٍ عميق:

" كم سيغيب؟"

ردت بصوتٍ ناعم رقيق قائلة:

" سيبيت اليوم في القاهرة، يمكننا المبيت معًا الليلة ".

رفع حاجبية في دهشةٍ وهو يبعدها عن حضنه، وينظر لعينيها فتخلصت من يده، وعادت تنغمس في حضنه وهي تقول بصوتٍ أكثر رقةً:

" لن أبيت وحدي الليلة، ستبيت معي".

وأمام عينيه مرت نادية وعيشقها، مراد السريطي، نعم أنه مراد يعرفه جيدًا، هو واحدٌ من أبناء ذوات زمن ما بعد الثورة متجهين معًا ناحية غرفة نومه.

أفاق عماد من رؤيته والدماء تغلي في عروقه وتتصاعد حتى تغلي في مخه، حقًا خانته نادية، ولماذا يكذب غرابًا قادرًا على رؤية المستقبل، فهل يخطأ في رؤية الماضي؟ تلك الرؤية لم تختلف كثيرًا عن رؤى الماضي في وضوحها، فلماذا إذن يكذبها؟

ظل عماد يدور حول الغرفة كصقر جريح تلهب أنفاسه جرح قلبه، ويسكب التفكير مطهرًا قويًا فوقها، فتزداد الآمها، ماذا يفعل؟ بالفعل هو يصدق غرابه، ولكن هل يقتل زوجته بسبب رؤية قبل أن يحصل على دليل؟

والأدهى من ذلك أن نادية في رؤيته كانت شابة صغيرة، مما يعني أن الخيانة تمت منذ زمن، إذن هل هؤلاء الأبناءه هم حقًا أبناء له هو؟

لم يفسد الأمر ليلة واحدة، بل أن التفكير استمر لثلاث ليالٍ كاملة، كانت الرؤى حول ذلك الموضوع تتكرر كلمها خطى غرفة مكتبه، حتى ولو لثوانٍ قليلة، بل إنها ازدادت قسوةً؛ فتارة يراها تستقبله، وتارة يراها بين ذراعيه، كانت الرؤى قاسية مقيتة تجلد روحه، نعم هو لا يحب نادية ويعاملها بقسوة، بل وارتاح من عدم وجودها في منزله، ولكن هل يبدو هذا سبب منطقي لتخونه؟ وكيف كانت تفعل طوال ذلك الوقت بينما تبدو أمامه زوجة صابرة محبة؟ لتلك الدرجة تجيد التمثيل، ولهذا الحد هو غبي معدوم البصيرة.

أما مراد فهو ذئب مثله تمامًا، ربما لا يعتبره صديق مقرب، لكنه يعرفه حق المعرفة، مراد يهوى السيدات المتزوجات، يلعب دومًا على وتيرة الزوج المهمل، وكم كان هو مهمل مع نادية!

باختصار نادية هي الصيد المناسب لمراد، جميلة راقية، ومن عائلة ذات شأن، والأهم أن خلقها مضرب للأمثال، أنها النوع المناسب تمامًا لمراد، والذي يمثل له تحدٍ قوي يزيد من رغبته المحمومة في إيقاع فريسته.

كان عقله منشغلًا عن أعماله، وعن كل ما حوله، حتى أنه لم يلحظ ذلك الشحوب على وجه شوقي، وتلك النبرة الغريبة في صوته حين دخل لغرفة نوم عماد صباحًا وهو يقول بحدةٍ:

" الإفطار يا بيك ".

أشار له عماد بيده قائلًا:

" شكرًا يا شوقي، ليس لي شهية اليوم، عد به".

انعقد حاجبا شوقي، وذم شفتيه، ثم قال بالحدة نفسها:

" ألهذا الحد لا يعجبك الطعام الذي أعده؟ رتيبة فقط هي التي تعجبك ".

نظر له عماد فى غير فهم بعقل مشوش، وقال:

" ارحل الآن يا شوقي؛ فلا طاقة لدي لمزاحك ".

تناول شوقي صينية الطعام بعنفٍ، واستدار خارجًا من الغرفة مغمغًا بكلمات لم تلتقطها آذان عماد، ولم يهتم كثيرًا لها؛ ففي عقله اختمرت فكرة، البحث في خزانة ثيابها وكل أدراجها، وأي شيء كان يخصها، ربما يجد شيئًا يثبت أو ينفي اعتقاده.

.....

لم يكن عماد هو الوحيد الذي يراوده ذلك الشعور المقيت بالخيانة والغدر، ففي المنزل ذاته وفي غرفة المطبخ تحديدًا، كان هناك شخص آخر تستعر نار نفسه، شوقي هو مدير المنزل الذي رفض عماد الاستغناء عنه بعد وفاة والده عم محمد، كان عم محمد خادمًا في القصر، ولكن كانت له مكانة خاصة عند والدي عماد، وعند عماد بالتبعية، فطالما عاملوه على أنه واحدٌ منهم واستشاروه في أمور عدة، بل أنهم دومًا ما رددوا أنه هو من ربى عماد، حتى شوقي نفسه، قد تربَّى بين ربوع القصر، ولم يبخل والدا عماد عليه بالملابس والتعليم، حتى اكتفى هو بعد أن حصل على دبلوم زراعي، ورغم عشقه للنباتات وتعلقه بها، إلا أنه قرر العمل في القصر بعد وفاة والده بشرط أن يمنحوه الأشراف على الجنينة مع الجنايني، ليفرغ حبه في الزراعة بها، ويحولها لواحدة من أجمل جناين القصور في مصر، ونظرًا لتعليمه ولباقته وصداقته بعماد، تم تعيينه مديرًا للمنزل، تلك الحرفة التي كانت سائدة بين النساء في ذلك الوقت

بشكل أبرز من الرجال، إلا أن شوقي قد رحَّب بها، وأصبح مديرًا للمنزل وسكرتيرا خاصة لعماد، حتى بعد الحجز على أملاكهم، رفض شوقي تركهم، واكتفى بربع الراتب الذي كان يحصل عليه مع مهام أكبرَ، وحين عادت الأملاك المصادرة لم يبخل عماد عليه، بل على العكس قد ضاعف راتبه الأصلي مع مكافئة سخية سمحت له بالزواج من رتيبة، تلك السمراء الجميلة كحيلة العينين، والتي انضمت للقصر كخادمة بعد تحسن الأحوال مرة أخرى.

ولكن شيئًا غريبًا سار يحدث مؤخرًا، فقد بدأت الأحلام تطارده في كل تلك الليالي التى يبيتها في غرفته في القصر وحيدًا بعد سفر رتيبة للبقاء بجوار والدتها؛ لاقتراب موعد والدتها، في البداية كانت أحلام بسيطة، وكأنها رؤى، كان يحلم بشيء معين ناقص من المطبخ، ليفيق من نومه ويكتشف أن فعلًا هذا الشيء قد نفذ منهم، أو حوار بينه وبين عم سعدون الجنايني ليحدث الحوار نفسه في اليوم التالي، ثم تطور الأمر بأحلام ترتبط بزوجته وبعض الآلام الخاصة بالحمل، ليتصل بها في اليوم التالي، ويكتشف أنها بالفعل كانت تعاني من هذا الألم.

سعد شوقي بذلك،ةوبدا يظن أنه أصبح (مكشوف عنه الحجاب)، ولكن لليلتين متتاليتين تغيرت تلك الرؤى فجاة، فسار يرى رتيبة زوجته تتزين في غرفتهم فى القصر، وتقف بكامل زينتها لتستقبل عماد بك بعد أن ينام الجميع، وتخبره فى غنج أن شوقي سوف يبيت

الليلة مع والدته لمرضها، وكم تكررت تلك الليال التي يبيت فيها شوقي بجوار والدته المريضة حين يتعذر على أختيه أن تأتي واحدة منهما لتبيت بجوارها!

في بادئ الأمر حاول إقناع نفسه أنها مجرد أحلام، ولكن مع تكرارها ووضوحها باتت نفسه تصدقها، وتغلي عروقه كلما رأى عماد.

خرج شوقي من المطبخ إلى الجنينة ليملأ صدره بالهواء النقي، لا يحب مكانًا فى القصر كله قدر حبه لتلك الحديقة التي يحرص عليها بشدة، وكأنها ابنته، إلا أنه وبمجرد أن خطت قدمه خارج المطبخ لمح عاد يركب سيارته مستعدًا لمغادرة القصر، نظر له بكره وعض شفته حتى أدماها وهو يغلي قائلًا:

" حتى رتيبة زوجة صديقك وخادمك المخلص لم تتركها، كنت أعتقد أنك خسيسًا نذلًا مع الغرباء فقط، ولكن الثعبان لا يفرِّق في لدغته ".

وما أن غادر عماد حتى دخل هو لغرفته مع رتيبة مسرعًا؛ ليفتش بين الأغراض؛ لعله يجد دليلًا يدين رتيبه ليقتلها بضمير مرتاح.

.....

قالت نادية وأمارات الفزع ترتسم على وجهها:

" أجُنِّنت أنت؟

مَن تلك التي تنعتها بالخائنة؟"

صرخ عماد والشرر يتطاير من عينيه قائلًا:

" أنتِ أيتها الساقطة، تخونيني أنا مع مراد السريطي يا ابنة الكلاب".

انتفض والدها الذي قيدته الدهشة على كلمته، ودفعه بكلتي يديه بعيدًا عن ابنته وهو يقول:

" أنتَ أنسان غير محترم، أتنعت ابنتي أنا بالخائنة وابنة الكلاب؟ ومن أنتَ وما هي إنجازاتك يا ابن الحسب والنسب؟"

نظر له عماد والشرر يتطاير من عينيه قائلًا:

" حسنًا، أنتم الشرفاء إذن، فالتفسر لي سليلة الحسب والنسب سبب وجود ذلك".

قال جملته الأخيرة وهو يُخرج من جيبه بروش الماس على شكل فراشة تفرد جناحيها في حجم أصابع اليد الأربع مرصعة بالكامل بالألماس والأحجار الكريمة الملونة.

شهقت نادية وهي تخطتفه من بين يديه وهي تقول بفرحة فشلت في أن تخفيها:

" وجدته!! لقد حسبتني أضعته ولن أجده أبدًا".

صرخ عماد وهو يجذبها من شعرها قائلًا:

" وتعترفين أيضًا أيتها الخائنة".

جذبه والدها من ملابسه وهو يقول:

" أي هراء هذا؛ أنه ملكها؟"

نظر له عماد بسخرية وهو يقول:

" وأنت أيضًا تعرف، حقًا اذا كان رب البيت بالدف ضاربًا".

انفعل والد نادية عليه قائلًا:

" الزم حدك أيها الغبي، أنا من اشتريته لابنتي حين كنت في فرنسا منذ عامين بمناسبة انتهاء واحده من أكبر الصفقات".

رفع عماد حاجب واحد وهو يقول:

" والآن تختلق القصص لتداري على خيانتها".

كاد الرجل يضربه لولا تدخُّل نادية التي احتضنت والدها قائلة من بين دموعها:

" أرجوك يا أبي لا، لا اريد أن يرى أبنائي جدهم ووالدهم يتشابكان ".

ضمها والدها وهو يقول في غضبٍ:

" ويعجبك أن يروا والدهم يتهم أمهم بتلك التهمه البشعة ".

لم ترد نادية، واكتفت بالنهنهة، فتوجه بالحديث إلى عماد قائلًا:

" أخرج من بيتي، ولا تعد هنا أبدًا مرة أخرى، وابنتي سوف تطلقها ورجلك فوق رأسك ".

نظر له عماد باستفزاز واستدار خارجًا، ولكن قبل أن يغلق الباب خلفه قال لها بنبرةٍ بدأت هادئة بشكلٍ مريب:

" سوف أقتلك بيدي".

ثم صفع الباب خلفه وخرج.

.....

ربما كان المنطق والعقل يقولان أن نادية من الصعب أن تخون زوجها، طباعها وكرامتها وأنفتها كلها أشياء توحي بنبلها وترفُّعها عن أي خطأ قد يكون، فما بالك بالخيانة، ألا أن تكرار تلك الرؤى قد هوت بعقل عماد في جب سحيق، لم يعد يرى أو يسمع فيه ألا نادية بين أحضان مراد تردد كلمات ماجنة لم يسمعها هو نفسه منها أبدًا، حينما قرر تفتيش الغرفة صباحًا، كان لا يزال بداخله أملٌ أن لا يجد شيئًا، ولكنه وجد ذلك البروش مخبأ بعناية بعيد عن علبة

مجوهراتها التي أخذتها ونسيته، كان مخبأ في ركن الدرج تحت مفرشه، وكأنها تريد أن تبعده عن العيون، لم يكن يعلم عن مجوهراتها شيء، ولكنه يعلم شيئين جيدًا: أولًا أنه لم يرَ هذا البروش معلقًا في صدرها أبدًا، وثانيًا أن البروش نفسه قد ظهر في واحدة من تلك الرؤى، رأى مراد يهديه لها وهي بين زراعية بعد ليلةٍ حمراء قضاها معها.

الآن هو واثق من خيانتها، ربما أنكرت ودافع والدها عنها ألا أنه الآن واثق أن تلك الرؤى ليست هلاوس، لهذا فلم يعد يبقى له سوى استرداد كرامته وشرفه بقتلهما، لهذا لم يتردد كثير فى الاتصال بفيلا مراد السريطي وتحديد موعدًا معه في اليوم التالي، موعدًا وصفه بالشديد الأهمية والسرية، مما دفع مراد _ رغم اندهاشه الواضح _ إلى تحديد ذلك الموعد في عوامته التى يسميها هو "عوامة الفرفشة"، وكان هذا أكثر من مناسب بالنسبة لعماد، فلا شهود ولا خدم وعشرات المترددين على المكان، يكفي أن يدخل المكان دون أن يراه أحدٌ، ففي الأصل لا توجد علاقة عمل أو صداقة قوية تربطه بمرادؤ ولهذا فمن الصعب أن تدور حوله الشبهات، أما هي فلها ترتيب آخر.

.....

في القصر نفسه وعلى بعد أمتار قليلة، كان عماد يدور حول نفسه كالمحموم في المطبخ، تأكد الآن من خيانة رتبية له، حمل رتيبة لم يكن مستقرًا أبدًا، وسفرها لوالدتها جاء مفاجئ، في يومها الأخير في القصر كانت في المطبخ، حينما بدأ النزيف يفاجئها، حملها شوقي وهرع بها لأقرب مشفى، وهرعت خلفه السيدة نادية زهرة القصرصرت على نقل رتيبة بسيارتها، يومها أصرت على الذهاب بها لمشفى خاص، ودفعت هي كل المطلوب، بعد الاطمئنان على الجنين وعلى رتيبة أوصى الطبيب بالراحة التامة لها، فأصر شوقي أن تنتقل رتيبة لمنزل والدتها في المنصورة حتى تلد، وذهب وأحضر لها بعض الملابس على عجلٍ، ووضعت السيدة نادية في يدها مبلغًا ماليًا يكفيها ويزيد، ومنحت شوقي ثلاثة أيام أجازة ليوصلها لأهلها، كانت رتيبة رافضة بشدة بل أنها بكت وتوسلت لهم أن يتركوها في القصر ولن تخرج من غرفتها ولا تريد راتبها، ألا أن شوقي والسيدة نادية أصرا معًا على إرسالها لوالدتها؛ خوفًا عليها وعلى جنينها مع وعد أن ينتظرها عملها حتى تعود بالطفل الصغير، في النهاية ذهب شوقي برتيبة لوالدتها في سيارة السيدة نادية، والتي منحتها لهم بطيب خاطر حتى تصل رتيبة بالسلامة دون المزيد من المخاطر.

كانت رتيبة جميلة للغاية، بل فاتنة خلبت لب شوقي منذ اليوم الأول لها في القصر، قوامها الملفوف المائل للامتلاء، وعيناها العسليتان، وبشرتها البيضاء كانوا كافيين ليصرعوا أقوى الرجال، فما

بالك بأهدابها الكثيفة، وشعرها البني الذي يغطي ظهرها، وشفتيها المكتنزتين، كانت تصلح لأن تكون فينوس الأساطير الأغريقية، بل أنها _ ورغم جمال نادية الواضح _ كانت تفوق سيدتها جمالًا، وبالفعل خلبت لب كل من رأها منذ يومها الأول، ولكن شوقي كان المحظوظ الوحيد الذي فاز بقلبها وتزوجها، كانت رتيبة تتدلل طوال الوقت، في حديثها ونطق كلامتها بطريقة ممطوطه تدير العقول، وحتى مشيتها وضحكتها كانا ينضحان بالدلال بل والميوعة أحيانًا، لطالما حاول شوقي مقاومتها ألا أنها دومًا كانت تستطيع احتوائه بكلمات قليلة لتنسيه ما كان بصدده.

شوقي يعلم جيدًا أن سيدة زير للنساء كما يدعوه الكل، لكنه أبدًا لم يتوقع أن ينظر لخادمتة وزوجة صديقة وخادمة المخلص، فما فعله شوقي معه لم يفعله أقرب الأصدقاء حين صودرت كل أملاكه، ولكن الآن لا يوجد مجالٌ للشك .. لا يعلم سببًا واضحًا لتلك الرؤى ألا أنه يعلم أنها حقيقية، خاصةً بعد أن وجد ذلك المبلغ الضخم في دولاب رتيبة يغفو تحت أغطية الشتاء الخاصة بهم، والتي لا تمتد لها يد سواها، ألف جنية كاملة .. من أين لرتيبة بمبلغ كهذا، وبجوارهم داخل علبة حمراء مخملية تغفو سلسة من الذهب، تعلقت بها دلاية باسم رتيبة، علبة تحمل اسم الخواجة كوستا، ذلك الجواهرجي الذي يتعامل معه عماد، ولا يتعامل مع سواه، حتى لو حاول افتراض الأقل سوءًا، وقال أن رتيبة سارقة، ف كيف تسرف

ألف جنية كاملة من أصحاب الدار على مدار عامين فقط دون أن يلاحظ أحد؟

ومن أين لها بتلك السلسلة وهي التي لا تغادر القصر؟

في تلك اللحظة أدرك شوقي كم كان مغفلًا، لم يزعج رتيبة أبدًا مغادرته في بعض الليالي للبقاء مع والدته، بل أنها كانت ترفض مرافقته، تودعه بابتسامة، وتستقبله بابتسامة، وكأن غيابه لا يعنيها، تذكر الآن كم ضحك عماد حينما طلب منه أن يتزوج رتيبة، وكم رحب بالفكرة بعد أن استغرق في التفكير لدقائق، كان هو الوجهة المناسبة لرتيبة، زوجة شوقي في العلن وعشيقة عماد في الخفاء، تبقى في القصر دون أن يشك أحدٌ في الأمر هكذا إذن كان دوره.

كان يدرك أنه لو قتلهما الآن لقضى بضع سنوات خلف القضبان قبل أن يتأرجح جسده على حبل المشنقة، كان الأمر يتطلب بعض الحكمة، ولم تحتاج الخطة لأكثر من ساعة ليرتبها عقلة .. فالحل في نخيل السيكاس.

كان موعده مع مراد بعد عدة ساعات، وبوجه عام لم يكن له شهية لتناول الطعام، ألا أنه كن يريد أن يبدو طبيعيًا؛ حتى لا تتجه إليه الأنظار، لذلك طلب من شوقي تحضير الغداء الذي تناوله بعقل منشغل وروح تحترق، كانت معدته تأن رافضة أن يحمِّلها مزيدًا من

الضغوط، ألا أنه لم يهتم، يجب أن يبدو طبيعيًا، لم يشعر للطعام بمذاق، ولم يهتم لذلك، كان المهم أن ينهي القدر الأكبر من الطعام قبل أن يخبرهم أنه صاعد لينام في غرفته، ثم يتسلل خارجًا لمقابلة مراد، كانت خطته جيدة، الخدم جميعا يرونه صاعدًا لينام قيلولته التي اعتاد عليها، واعتادوا هم عدم إزعاجه خلالها أبدًا، في حين أنه خرج ليقتل مراد ويعود .. فإذا حامت حوله الشبهات شهد الجميع بنومه في غرفته كعادته اليومية.

كان شوقي كذلك يهتم بالشيء ذاته أن ينهي عماد القدر الأكبر من طعامه دون أن ينتبه لتغيُّر طعمه، ولم تفارق الابتسامة شفتيه وهو يحمل الأطباق عن السفرة، كان عماد قد تناول القدر الأكبر بالفعل دون الانتباه لتلك الإضافة، أوراق نخيل السيكاس، نخلة صغيرة موطنها الأصلي يبعد عن مصر بالآف الكيلومترات، ألا أنه عماد قد أرسل في إحضارها لتزيين قصره، دفع ثروة في تلك النخلات القليلة التي أحضرها، ألا أنه كان سعيدًا جدًّا بها، بالفعل هي جميلة جدًّا، بل رائعة، وقد أضافت لحديقة القصر مظهرًا مميزًا، ولكن من كان يدري أنها نبتة سامة سواه، هو الخبير في الزراعة هنا وهو المسؤول عن الحديقة، حتى البستاني كان شابًا في مقتبل العمر، حينما جاء كان عديم الخبرة، علمه شوقي كل ما يعلم، بعض وريقات من تلك النخلة طحنها جيدًا حتى أصبحت شبه سائلة، وقرر أن يضيف منها مقدارًا متوسط لطعام عماد يوميًا، تلك النبتة قاتلة، ولكنه لا يرغب

أن يموت مرة واحدة؛ حتى لا يشك أحدٌ في الأمر، بالطبع لا يوجد من يكشف سم نبتة السيكاس في الدم، ولكن الاحتياط واجب، وها قد تناول عماد اليوم أولى وجباته بالفعل.

هل كان يتوقع أن يسير الأمر كما خطط له تمامًا، ربما كان يتوقع ذلك حينما ذهب لمراد، كان بحوزته مسدس استطاع إحضاره في الأمس بطرق ملتوية، طلقة واحدة من مسدسه الكاتم للصوت وينتهي الأمر، ولكن في عوامة مراد كان هناك خادم، كيف كان بالغباء الذي جعلة ينسى هذا الخادم الذي تعرَّف عليه فور وصوله للمنزل، ذهبت خطته سدى إلا أن قرر قتل الرجل وخادمه.

لم يكن يريد قتل الخام، لذلك فكر سريعًا في خطة ارتجالية، أن يشرب مع مراد الكثير من الخمر، بالطبع لن يحتسي كل كؤوسهؤ ولكنه سيحرص عاى تناول مراد الكؤوس كلها، ثم يدفعه في الماء في غفلة من الخادم، ويدعي أنه سقط بسبب عدم اتزانه، تلك الخطة كان ينقصها فقط ذريعة جيدة لحضورة وحوار يطيل قدر المستطاع، ولما كان عقله يدور ويدور حول الموضوع نفسه، فقد قرر التحدث فية مع عماد مباشرة.

بدأ حديثة قائلًا:

" أدرك أننا لسنا أصدقاء، ولكنني أثق في قدرتك على مساعدتي وحفظ السر".

ابتسم مراد بسماجته المعهودة كاشفًا عن صفي أسنان ناصعي البياض قائلًا:

" بالطبع ياعزيزي، هات ما عندك ".

قالها وهو يعود في مقعده للوراء واضعًا ساق فوق الأخرى، كتم عماد غيظه وقال:

" هل يمكننا شرب كأسين، ولكن بعيدًا عن خادمك "

نظر مراد صوب الخادم لثوانٍ، ثم قال بصوتٍ مرتفع:

" سيد، اذهب لترتيب غرفة النوم من فضلك ".

ترك سيد تلك الكؤوس التي كان يلمعها، واتجه صوب غرفة النوم، في حين نهض عماد وصب كأسين من الخمر له ولمراد، ثم عاد إلى مجلسهم، وبدأ الحديث قائلًا وهو يحاول السيطرة على أعصابه:

" نادية تخونني".

رفع مراد حاجبيه في دهشةٍ، ثم انطلق يضحك في فظاظة لا تناسب الموقف، أصعرت النار في قلب عماد، فقال في عصبيةٍ واضحة:

" هل يُضحِك الأمر إلى هذا الحد؟"

تنحنح مراد وقال محاولًا ضبط نفسه:

" أسف، لم أقصد ولكنني كنت أظنها غير جميع نساء الأرض".

لم يفهم عماد تلميحه، فأكمل قائلًا:

" الآن أريد أن أعرف هذا الشخص الذي تخونني معه ".

شرد مراد قليلًا كأنه يفكر في مشكلة عماد، ألا أنه كان شاردًا في نفسه، يشعر بالغيظ من نادية، لم يضحك سخرية من عماد بل من نفسه، حاول التقرُّب لها مرارًا وتكرارًا، لكنها كانت تصده بكل صلف وغرور، بل إنها هددته بإبلاغ والدها إن تجرَّأ وحاول معها مجددًا، يومها حسد عماد على زوجته.. قال في نفسه لو أنه يجد مثلها لتزوجها على الفور بعد أن فقد إيمانه بطهر كل نساء الأرض، فما من زوجة حاول التقرب منها حتى تلك الحظة ألا واستجابت له، منهم من استجابت فورًا، ومنهم من لانت بعد عدة محاولات، ماعدا نادية أبدًا لم تلن.. مهما حاول معها حتى ظن أنها حقًا تختلف، وها قد جاء زوجها اليوم يعلن أنها تخونه ويطلب مساعدته.. لا يعلم أنه يريد أن يعرف من هو ذلك العشيق ربما أكثر منه؛ ليدرك على الأقل ما المميز فيه جعلها تفضِّله عن عماد الصريطي.

طال صمت مراد، ولم يحاول عماد جره إلى الحديث مرة أخرى، كان بالنسبة إليه صمته الطويل دليل إدانة ضده، كما أنه طوال تلك الدقائق تجرَّع ما يقارب التسعة كؤوس، رقم طبيعي لمراد الذي اعتاد على شرب الخمر ربما أكثر حتى من شرب الماء، ولكن مع ذلك العدد من الكؤوس لم يبدُ على مراد أنه حتى تأثر حينما بدأ الحديث قائلًا:

" هل أنت متأكد يا عماد، تبدو لي زوجتك من نوع نادر من أولائك النساء اللاتي لا يخونن أزواجهم مهما حدث".

ابتسم عماد بطرف فمه بسخريةٍ قائلًا:

" لا يغرك المظهر؛ فالمظاهر خادعة .. لقد تأكدت شكوكي ".

اعتدل مراد في جلسته وهو يجرع كأسًا آخر قائلًا:

" راقبها إذن".

بدأت أعصاب عماد تخرج عن سيطرته، فقد شعر أن الوقت يمر ومراد لا يتأثر بتلك الكؤوس، فقال بعصبيةٍ:

" ربما تكون فكرة صائبة، ولكني لن أستطيع أن أراقبها بنفسي، ولا يمكنني تأجير شخص ما لفعل ذلك، فأنا لا أضمن أحدًا".

نهض مراد، واتجه ناحية البار ليصب لنفسه كأسًا من زجاجة مختلفة وهو يقول:

" زوجتك صعبة المراس، عنيدة لو علمت أن تشك في سلوكها، فلن تستطع الوصول لشيء".

كانت الخمر لعبت برأسه أخيرًا، فأفلت لسانه بكلمة عن نادية انتفض لها عماد قائلًا بعصبيةٍ:

" وأن لك أن تعرف طباع نادية".

ارتبك مراد، وراح يجرع كأسه في بطء وهو يحاول أن يجد ما يقوله، وأمامه عماد تشتعل عينيه غضبًا، ثم قال أخيرًا:

" رأيتها عدة مرات في النادي، وسمعت صديقاتها يتكلمون عن طبعها".

لم يقنع الكلام عماد الذي صار مجنونًا تمامًا رغم أنه لم يتناول سوى ثلاث كؤوس، فانقض عليه صارخًا وهو يقول:

"أنت عشيقها أيها الحقير القذر"

حاول مراد تفاديه ألا أن سرعة استجابته كانت قد تأثرت بفعل الخمر، فلم يستطع وسقط مراد أرضًا يعلوه عماد الذي أمسكه من ياقة قميصة صارخًا:

" سوف تدفع الثمن أيها الوغد".

كان مراد يحاول التملُّص من يد عماد وهو يقول:

" أقسم لك لست أنا .. لم أمسها، أقسم لك حاولت معها لكنها رفضت".

هم عماد أن يصيح في وجهه بأنه كاذب عندما شعر بضربة قوية على ظهره أسقطته أرضًا .. لم يكن سوى سيد الخادم الذي خرج على صوت صراخهم معًا، كان من حظ عماد أن العوامة تعتبر معزولة نسبيًا لهذا لم يهرع لهم أحد من الجيران.

كان عماد مُلقى أرضًا، يشعر بدوار شديد وحرقة في معدته، ويرى أمامه سيد وقد أنحنى على سيده مراد يساعده على النهوض، لم يشعر بنفسه وهو يُخرِج المسدس ويضربهما معا عدة طلقات.

أفاق عقله على صوت الطلقات التي خرجت من بين يديه، كان أمامه دقائق قبل أن يفطن أحد لما حدث، لهذا لم يفكر كثيرًا، انطلق على غرفة النوم الأساسية، وبعثر محتوياتها وهو يجمع كل ما يقابله من أشياء ثمينة، وهي قليلة على كل حال، فقط ليوهم القادمين أن من فعل ذلك لصٌّ.

أخذ كل ما جمع وخرج مهرولًا بعيدًا عن العوامة، وحمد الله كثيرًا أن أحدًا لم يرَه، وعندما ابتعد بقدر كان ألقى كل الأغراض من يده في النيل مع المسدس الذي استخدمه، وعاد لمنزله متسحبًا كما خرج منه؛ حتى يظن الجميع أنه لم يخرج أصلًا.

وحينا وصل لغرفته وبدَّل ثيابه استلقى على فراشه وهو يفكر في نادية، أنكر مراد تمامًا صلته بها كما أنكرت هي، كلاهما جبان، قتل مراد اليوم وبعد أيام يتخلص منها بحيلةٍ ما، لن تمس قدمه أرض السجن عقابًا على قتل تلك الخائنة.

كا شوقي قد قرر أن يبدع فى إعداد الطعام، يجب أن يختار أطعمة ذات نكهات قوية، أو تتطلب الكثير من التوابل؛ حتى يغطي طعمها على المذاق المر لنبات السيكاس، ومع ذلك كان قد قرر إضافة

قطرات منه على كل شيء حتى القهوة والعصائر، ساعده على ذلك أن عماد كان مشغولَ البال تلك الفترة، لم يكن يدرك أصلًا أنه يفكر في قضية قتل مراد التي بدأت تغطيها الصحف، وبدأ التحقيق مع كل من كانت له صلة به ولو بسيطة، تحدثت الجرائد عن كأسين، كان على أحداهما بصمات مراد أما الآخر فكانت بصمات شخصٍ آخرَ مرجح أنه القاتل، جمع كل شيء ونسى ذلك الكأس، كان يأكل أصابعه من الندم كما كان في انتظار أن يشير أحدهم لاسمه حتى ينكشف الأمر ببساطة، لهذا لم ينتبه أبدًا لاختلاف مذاق الطعام، ولم يلتفت أيضًا لذلك الألم الذي يعتصر أمعائه في وحشية، وحالات القيء والدوار الذان بدءا يصيبانه مؤخرًا، لم ينتبه إلا حين سقط فجأة مغشيًا عليه، واستيقظ على شوقي وباقي الخدم يحملونه لنقله لغرفته، كان عاجزًا عن الكلام، ويشعر أن أنفاسه ثقيلة للغاية، ودقات قلبه سريعة وعالية.

عندما جاء الطبيب كانت نادية معه، لا يعلم من اتصل بها، ولكنه لم يهتم بذلك كل ما كان يزعجه أنها ظهرت أمام الجميع بمظهر الزوجة المخلصة التي تساند زوجها في مرضه، لم يضِف الطبيب كثيرًا، قال أنه يرغب في نقله للمشفى؛ لإجراء عددًا من الفحوص، ولم يستطع هو الاعتراض؛ فقد كان بالفعل متعبًا للغاية.

في المشفى كان الأطباء عاجزين أمام حالته، كان عماد شابًا في منتصف العقد الرابع، لم يشكو من أي تاريخ مرضي في السابق، ولم

يتغير أي شيء في نظامه الغذائي، لماذا إذن يشكو من فشل في وظائف الكبد، في العناية المركزة كان قليلًا ما يفيق، وكلما أفاق ينادي نادية، كان يمقتها ويرغب في أن يلقي عليها يمين الطلاق حتى لا ترثه، ولكنه لم يستطع ، كلما حاول التحدث كان يقول كلمات بدت لها مبهمة " المزاد .. الغراب .. الرؤى".

حينما مات عماد أخيرًا بعد عدة أيام من العذاب المتواصل، لم تكن نادية قد أدركت بعد ما يحدث حولها، كانت مصدومة وحزينة، كان الكل يعتقد أنها تتألم لوفاة زوجها، ولكنها في الواقع كان يدمي قلبها فوق خبر وفاته أنه توفي وهو يعتقد أنها خائنة، وهي التي تحمَّلت كل معاملته السيئة وتجريحه الدائم لها على أمل أن يحبها يومًا.

كانت كلماته المتكررة تشغلها طوال أيام العزاء، ولكنها كانت في حالة عدم اتزان لتسأل، أيام العزاء انقضت، وعادت رتيبة بطفلها إلى القصر، وكانت تلك بداية النهاية لكل شيء

منذ عادت رتيبة كان حزنها قوي وغير مفهوم، كانت تبكي ليلًا ونهارًا بشكلٍ مبالغ فيه، حتى أن لبنها قد انقطع، ولم تعد قادرة على إرضاع طفلها، كان شوقي يغلي غضبًا، كان كل شيء فيها ينطق بخيانتها، حتى أن كل من بالقصر راح يتهامس عن رتيبة .. عن حزنها وولائها الغريب لعماد بك .. لم تحاول حتى أن تخبئ إحساسها مراعاة للرجل الذي تحمل اسمه، أو لطفلها الرضيع الذي كان شوقي يمقته، كلما مر يوم على ذلك الطفل، واتضحت ملامحه كان الشبه بينه وبين

عماد يتضح أكثر وأكثر، وكان ذلك يلهب قلب شوقي وكرامته، ورغم أنه خطَّط للانتظار لبعض الوقت قبل قتلها ألا أنه لم يستطع.

كانت صامتة تغسل الصحون وهي شاردة، حينما دخل شوقي وقال لها:

" الطفل يبكي في الغرفة .. ألن ترضعيه؟"

كان يشير له بالطفل، لم ينطق اسمه أبدًا، كان يرغب _ حينما كان يعتقد أنه ابنه _ في منحه اسم سعيد ليحظى بجزء من اسمه، ولكنها لم تسأله و منحته اسم عادل، حتى الاسم كان ينطق بخيانتها.

أستدارت له بعينين غسلتهما الدموع قائلة:

" جف لبني يا شوقي، ألم أخبرك؟"

ابتلع غضبه، وتظاهر بالحنان وهو يضمها قائلًا:

" هوني على نفسك يا رتيبة؛ فكلنا إلى الله وملك له .. الراح هو من يتقي الله في الدنيا والآخرة ".

وضعت رتيبة رأسها في صدره وهي تنتحب قائلة:

" أبناؤه الصغار من لهم".

كاد أن يسحب السكين من حوض المطبخ ويغمده في ظهرها وهي بين ذراعيه، ولكنه تمالك نفسه قائلًا:

"وابننا نحن ما ذنبه".

رفعت رأسها، ونظرت في عينيه وقالت:

" وماذا أفعل؟"

أبعدها عن حضنه وهو يحيط كتفيه بكلتي يديه، ونظر في عينيها قائلًا:

"هناك حل ولكن مذاقه سيىء".

مسحت بكفها عينيها قائلة:

" نبتة السيكاس .. لو تناولتي منها ورقتين فقط لعاد اللبن ".

ثم سحبها من يدها، وأوقفها أمام النافذة، وأشار لها على النخلة الصغيرة قائلًا:

" هذه هي، سأكمل أنا ترتيب المطبخ، واذهبي أنتِ اقطفي منها ورقتين وتناوليهم .. لن تمر ساعة حتى تجدي اللبن قد ملأ ثدييك".

كانت تعلم أن شوقي خبير بالنباتات، لطالما أذهلها بمعلوماته عنها، لهذا خرجت من المطبخ متجهةً ناحية النبتة.. قطفت منها عدة ورقات وعادت لغرفتها لإسكات الرضيع الباكي، كانت بقايا ضميرها تؤرقها.. شوقي شخص رائع .. مخلص ومتفهم ووسيم وراتبه كبير، لولا أنها أحبت سيده أولًا، كادت ترفض طلب شوقي بالزواج إلا أن إصرار عماد على زواجها متعللًا بعدم قدرته على الزواج منها، وأن

زواجها من عماد خير غطاء لوجودها في القصر؛ حتى لا تنزعج نادية لما تزوجته، كان يغدق عليها في المال والعطايا، ووعدها أن يعلّم ابنها في نفس مدارس أبنائه، كانت من داخلها تعلم أن الطفل القادم ابنه هو، وحينما وُلِد الطفل تأكدت، ولكنها الآن تشعر بفداحة ما فعلت .. فى فترة غيابها عنه أدركت أن شوقي لم يكن يستحق منها ما فعلت.

صمت الرضيع بعدما شرب بعض الحلبى المخفف الذي تعده له أمه، ثم تناولت هي خمس ورقات كاملة من ورقات النبات، كان مرًّا للغاية إلا أنها تحمَّلت مذاقه؛ لعلها تستطيع إرضاع طفلها.

بالنسبة لنادية، كان الأمر مثيرًا للشك، رتيبة راحت تصرخ من الألم وهي تتقيأ، وفي المشفى قالوا أنها تعاني فشلًا في الكبد والجهاز التنفسي بدون سببٍ واضح، كيف إذن يفوتها ملاحظة أن رتيبة ماتت بالأعراض نفسها؟ وكيف لا تلاحظ أن شوقي ليس حزينًا لذلك، ويترك طفله دون طعام أو شراب بالساعات، كانت نادية تأخذ الطفل الذي صار يتيمًا، وهو ابن أيام قليلة لتهتم به، وتحضر له لبنًا، وتبدِّل له الحفاض.

ولكن قلبها كان يحدثها أن شيئًا غريبًا يحدث، في النهاية ومع ازدياد غرابة تصرفات شوقي الذي بلغت مداها بالنسبة لها حين قرر الزواج قبل أن يمر شهرٌ واحدٌ على وفاة رتيبة، التي كان يحبها بشدة، قررت التحدث معه،

دخلت أخيرًا غرفة المكتب، كان يجب عليها في النهاية أن تدخلها، ولكنها كانت تخشى دخولها وحدها، لهذا كانت الفرصة جيدة جدًا لها أن تتحجج بالحديث مع شوقي لتقهر رهبتها وخوفها من تلك الغرفة، بالطبع لم يثمر الحديث معه عن أي شيء، ولكنها شكرته في أعماقها؛ لأنها دخلت أخيرًا لتلك الغرفة، بعدما خرج بدأت في إخراج الأوراق من المكتب لترتيبها وفهمها، ومع مرور الوقت كان شعورها بالاختناق يزداد، وكأن هناك شيء يجثم على صدرها.

في نهاية اليوم خرجت من المكتب وهي ملمة بكل تلك الحسابات التي فوجئت بأن عماد زوجها الراحل قد أفسد معظمها، وتسبَّب في خسائر فادحة، وقررت أيضًا تغير ديكورات المكتب.

طلبت من الخدم مساعدتها في إخراج محتويات الغرفة وطلبت من شوقي الأشراف على أحضار العمال لإعادة طلاء الغرفة وأثاثها بالألوان مختلفة، أفرغت المكتبة في عدة صناديق، وقامت بتوسيع النوافذ واختيار ألوان مبهجة للستائر، أخرجت كل التحف من المكتب، وأمرتهم بجمع كل تحف المنزل، ثم اتصلت بواحدة من أكبر صالات التحف وطلبت من صاحبتها الحضور لشراء تلك الأشياء التي تزعجها وتذكرها بما فعله بها عماد.

كانت صالة باميلا للتحف والمزادات مشهورة للغاية، وسعدت مدام باميلا للغاية بتحف قصر عماد، كان عماد هو الأكثر شهرة في اقتناء تحف ليس لها مثيل، وكانت مدام باميلا مشهورة بتعاملاتها

الراقية التى تبعد عن الغش أو النصب، لهذا فقد كانت الصفقة رابحة من قبل أن تعقد للطرفين.

حضرت مدام باميلا، وراحت تتفقد القطع في انبهار واضح، كانت نادية تتعجل نقل تلك الأشياء، وكانت تعلم أنها ذات قيمة كبيرة، تفقدت باميلا القطع ببطء أتلف أعصاب نادية وأرهقها، ألا أنها لم تحاول تعجلها.

كانت مدام باميلا ترفع أحد حاجبيها في إعجاب أمام كل قطعة، حتى وصلت لتلك القطعة، ذلك الغراب المحنط .. حينما رأته ظهر على ملامحها تقزز واضح للغاية، وأدارت وجهها سريعًا، لفت تعبير وجهها نظر نادية التي جاءت مسرعة لتلقي نظرة على ما استوقفها، تفاجئت نادية للغاية .. لم ترا ذلك الغراب مسبقًا، ولا تفهم سبب شراء عماد له، ثم تذكرت فجأة كلمات عماد " المزاد .. الغراب .. الرؤى".

إذن اشترى عماد ذلك الغراب من صالة مزاد .. ولكن لماذا فهو عكس زوقه تمامًا، في الحقيقة هو عكس زوق أي شخص لديه عقل..

نادت على شوقي الذي كان يقف في ركن الغرفة سائلة :

" شوقي متى أشترى عماد هذا ؟"

قال شوقي :

" بعد أن غادرتي المنزل بفترة وجيزة يا سيدة نادية".

قالت في تقزز:

" لماذا؟"

قال لها:

" لا أحد يدري .. حتى أنه أخفاه في مكتبة وكأنه يكرهه".

شردت نادية قليلًا، ورددت كأنها تفكر بصوت مرتفع:

" إذن هذا هو الغراب الذي يقصد .. ماذا إذن عن الرؤى".

كانت تتحدث بصوت هامس ألا أن الكلمة لفتت نظر مدام باميلا وشوقي معًا، فاستدارا معًا قائلين:

" أي رؤى ؟"

التفتت لعلو صوتها، فقالت موضحة:

" كان عماد في غرفة العناية يقول .. المزاد والغراب والرؤى، ولم أفهم منه شيئًا".

تكلمت مدام باميلا بعربيتها ذات اللكنة الأوروبية قائلة:

" إذن، فقصة تلك الغراب حقيقية ".

نظر لها كلا من شوقي ونادية في عدم فهم .. تحدثت نادية قائلة بحذرٍ:

" إذن أنتِ تعرفين للغراب قصةً؟"

طلبت مدام باميلا فنجان من الشاي، وخرجت مع نادية إلى البهو الخارجي ليتحدثا في قصة الغراب أولًا، وأسعار التحف ثانيًا، أحضر شوقي الشاي، ووقف ليس بعيدًا يتأمل مدام باميلا التي تخطت الخمسين ببضع سنوات، ولازالت تحافظ على رشاقتها وحيويتها وهي تقول لنادية:

" كان الغراب من مقتنيات حكمت هانم .. كانت صديقة لي وعرفت بهوسها بالتحف، كانت تكبرني ببضع سنوات، ولكنها كانت بخلافي تقتني التحف لنفسها، أما أنا فاتخذت من حبي للتحف عملًا لي، كانت تهوى تلك الأشياء الغريبة، وكانت تقتني مجموعة كاملة من أشياء غريبة للغاية عرضتها على ذات مرة".

صمتت ثوان لترتشف من فنجالها على مهلٍ، ثم أشعلت سيجارةً، ونفخت دخانها على مهل، وعادت تكمل:

" تزوجت حكمت هانم من شاب يصغرها ببضع سنوات، كان وسيمًا جميلًا، ولكنه مستغل، تزوجها طمعًا في ثروتها، وكنا جميعًا نعلم أنه يخونها ألا هي ..، حينما بدأت أخبار خياناته المتعددة لها تصل لأذنيها، حاولت أن تتبعها لتضبطه متلبسًا، لكنه كان أكثر ذكاءً منها، كانت أعصابها قد بدأت في التلف حينما قررت أن تسافر في رحلة غريبة إلى وسط أفريقيا، عادت منها بعد ثلاثة أشهر منشرحة

وسعيدة .. ثم طلبت مني الحضور لشرب الشاي معها، ولتريني مجموعتها الجديدة ".

صمتت لتأخذ النفس الأخير من سيجارتها قبل أن تطفئها، ثم أكملت قائلة:

" كان الغراب أفضل حالًا من حاله الآن، ولكنه مع ذلك كان قبيحًا للغاية، أخبرتني أنها اشترته من ساحرة في وسط أفريقيا، كان دليلها هو من قام بالترجمه لها .. طلبت منها شيئًا يجعلها تضبط خيانة زوجها، فمنحتها ذلك الغراب، وأخبرتها أنها ألقت عليه تعويذة لكشف مستقبل الخيانة وماضيها، وأنه سيرتد على الخائن، بعد عدة أيام أخبرتني أنها بدأت ترى رؤى غريبة من بينها زوجها وهو بين أحضان عشيقاته .. لم تكن تعلم معنى أن يرتد على الخائن إلا حين واجهها زوجها أنها خائنة، وأنه يرى رؤى لزوجته تخونه، كان الغراب يعمل بطريقة غريبة يفضح الخائن، وفي الوقت ذاته يصوِّر له أنه كذلك يخان، ليتذوق شعور الخيانة كذلك".

كانت الحكاية كافية لنادية، لهذا تصوَّر عماد خيانتها له، كانت الصفقة عادلة للغاية؛ أخذت تلك السيدة كل التحف بمقابل جيد، وأحرقت نادية ذلك الغراب.

صمت إسماعيل، وأشار لزقزق قائلًا: " كوب من الشاي بلبن سريعًا يا زقزق".

ضحك أصدقاؤة، وعلق وائل قائلًا:

" ستؤلمك بطنك يا فتى".

ضحك قائلًا بطريقته الطفولية الجميلة:

" الجو بارد، والمشروبات الساخنة لا تؤلم البطن".

قال أحمد في هدوء:

" أذن، هل انتهت القصة هنا؟"

هز إسماعيل رأسه أن نعم، فأكمل أحمد:

" إذن، من أين عرفت قصة نبته السيكاس؟"

نظروا جميعًا له في تساؤل، فقال إسماعيل:

" لم يطُل الوقت على شوقي .. أخبرتني جدتي أنه توفي بعد عدة سنوات بداء القلب، ولم يتزوج تلك الفتاة التي أعلن عن رغبته في الزواج بها، وعلى فراش المرض فبل موته بأيام اعترف لجدتي بالقصة كاملة، وطلب منها أن تسامحه على قتل زوجها، ولكنه أخبرها أنه غير نادم، فقد انتقم لشرفه".

تنحنح إسلام، وقال بشيء من الارتباك:

" وماذا عن الطفل ابن رتيبة؟"

نظر إسماعيل بعيد عنهم في خجلٍ، وقال:

" بعد موت شوقي دفعت جدتي مبلغًا من المال لتغيير شهادة ميلاد عادل، ليصبح ابنها وابن جدي، كان شديد الشبه بزوجها، وكأنه ال DNA الخاص به في زمن ما قبل البصمات الوراثية، لهذا فعلت ذلك لتضمن حقه له، هو الآن يحيا في أمريكا، ولا يعود أبدًا، ولا نعرف أخباره إلا من اتصال كل بضعة أسابيع.

ضحك حسين قائلًا بسخافته المعتادة:

" إذن، جدتك ليست من سلالة الأمراء، ولك خال ابن خادمة ".

نظر له وائل بغضب، واصطبغ وجه إسماعيل باللون الأحمر، فتنحنح حسين قائلًا في محاولة لتخفيف ما قال:

" أقصد أن دم الأمراء اختلط بدماء الشعب ".

لم يبتسم أحد لدعابته، إلا أن وائل سارع كعادته في تغيير الموضوع قائلًا:

" هل تؤمنون بالأرواح الغاضبة؟"

رد إسلام قائلًا:

" أعتقد أنها حقيقية، ربما تظل عالقة لرغبتها فى الانتقام مثلًا".

التقط حسين نفسًا عميقًا، وأجاب قائلًا وكأنه لم يقل شيئًا جارحًا منذ لحظاتٍ:

" لا أعتقد أنها حقيقة؛ فالأرواح تصعد للسماء عقب موتها "

رد إسماعيل وهو يزال غاضبًا:

" ربما تعود الروح يومًا لرد صفعات، لم تستطع ردها في الدنيا".

كتم حسين الضحكة، وهم أن يقول شيئًا إلا أن إسلام قاطعه قائلًا:

"وربما سحر يا رفاق وليست روح".

نظروا له جميعًا في عدم فهم، فأكمل قائلًا بهدوء

" هل تعلمون لماذا لم أتزوج مروة ؟"

نظروا جميعًا له باستغراب، إسلام لم يتحدث أبدًا عنها منذ فراقهما، حتى أنه لم يصارح أحدهم بسبب انفصالهما، ولهذا كانت مبادرته غريبة، ولكنها نجحت في جذب انتباههم.

أجاب وائل بهدوئه المعهود قائلًا: "حسنًا يا إسلام، فعلًا لقد اتفقنا ألَّا يسألك أيٌّ منا خوفًا من أن يكون ذلك تدخلًا في شؤونك".

أكمل حسين قائلًا: "جميعنا كنا نعلم أنك تحبها، لم تكن تتوقف عن الحديث عنها، لذلك أدركنا أن ما فرقكما كان أمرًا جللًا".

سحب إسلام نفسًا عميقًا ثم قا: "لم أتركها، بل أُجبرت".

رفع إسماعيل حاجبيه بدهشة، ثم قال: "أُجبرت؟ أنت لا تُجبر، ومن ذا الذي يستطيع إجبارك على شيء يا إسلام. ربما تبدو حساسًا صامتًا في أغلب الأوقات، ولكننا جميعًا نعلم أنك لا تترك شيئًا راغبًا فيه، وأنك صلدٌ كالضخور".

كانوا جميعًا يعرفون إسلام جيدًا، مات والده وهم في الصف الأول الإعدادي تاركًا أياه ووالدته دون مصدر دخل، أو حتى معاش شهري، كان والده ميكانيكي سيارات ممتاز له دخل مرتفع للغاية، يطلبه الناس بالاسم من صاحب الورشة، ألحت والدة إسلام كثيرًا عليه ليفتح ورشته الخاصة، إلا أنه كان يرفض قائلًا أن فتح ورشة خاصة به مغامرة لا يأمن نتائجها، كما أن صاحب الورشة الحالية صديقٌ له، فلما يفعل، مات الرجل ولم يترك شيئًا سوي بعض الحلى الذهبية، التي سرعان ما باعتها الأم لتفي بمطالب الحياة، وقتها رفض إسلام أيَّ مساعدة، وأصر على العمل رغم حداثة سنه، قبل صاحب الورشة إسلام معه إكرامًا لوالده، وعلَّمه الصنعة، وظل يعمل بجانب الدراسة دون أن يشكو أو يفشل في أي منهما، حتى حينما تفوق في الثانوية، اختار كلية الهندسة، وداخلها تخصَّص قسم

ميكانيكا، لم يخجل أبدًا، لا من عمله ولا من ظروفه، لهذا كان صعبًا أن يقتنع أحد أن هذا الشخص يمكن إجباره على شيءٍ.

قال إسلام بعد برهة من الصمت:

"لا تدركون شيئًا، لذا سأحكي لكم ما حدث".

سحر عمي

أنتم تعلمون جزءًا من القصة بالفعل يا رفاق، بل وشاركتومني إياها، جميكعم يعرف أن مروة كانت صديقتي وزميلتي في الجامعة منذ العام الأول، وجدتُ بها كل ما كنتُ أتمناه، شعرتُ معها أن الدنيا تمنحني مقابلًا لما سلبته مني بوفاة والدي وأنا صغير.

رأيتم جميعًا مروة يوم خطبتنا، أعتقد أنكم أدركتم أن ما جذبني إليها ليس الشكل، مروة كانت متوسطة الجمال، فتاة عادية، يشبهها كثير من الفتيات، لا تملك عيونًا زرقاء ولا شعر طويل ينافس سواد الليل، كانت عادية الملامح، عيناها سوداوان ضئيلة الجيد، ترتدي حجابًا صغيرًا يغطي شعرها، حتى ملابسها كانت واسعة فضفاضة تختبئ خلفها وتتصور بصور من ألوانها القاتمة، لكنها لم تكن تملك أبدًا قلبًا أو عقلًا عاديًّا، كان قلبها بوسع الكون.

هل حكيت لكم أبدًا كيف تعرفنا؟ كان الأسبوع الأول في الجامعة، كنتُ لازلتُ متخبطًا بين الطرقات والأدوار الكبيرة الواسعة، حصلتُ على الجدول، وحاولت التعرُّف على أماكن القاعات، ولكن سرعان ما تم تغييره، لذلك في هذا اليوم وصلت متأخرًا لأجد جدولًا مختلفًا، وأجد أن المحاضرة قد بدأت بالفعل.

ظللت أبحث عن رقم تلك القاعة، وقد زادني التوتر لخبطة وتخبط حتى نسيت كل ما حاولت حفظة في اليوم السابق، وحين وصلت إليها كان قد انقضى من زمن المحاضرة نصف الساعة، طرقت الباب ودخلت القاعة بعد لأجد أستاذًا عابسًا أمامي، حاولت أن أبرر سبب تأخري، ولكن ما أن قلتُ أنني آسف، وأنني لا زلت تائهًا بين الأدوار والطرقات حتى وجدتُ الأستاذ قد انطلق يصفني بكلمات جارحة أضحكت الجميع إلا هي، وقفت وقالت بكل أدب: "جميعنا لازلنا متخبطين تائهين، كما أن الجدول قد تم تغييرة اليوم، على الأقل هو امتلك الشجاعة ليطرق الباب، ولم يجبن ويضيع المحاضرة الأولى".

هل تعلمون ما فعله ذلك الأستاذ معها ومعي بعد ذلك؟ بعد أن أكمل تقريعه لكلينا، سحب منَّا الكارنيهات، ولم يكن غريبًا أن يرسبنا في مادته في ذلك العام.

من يومها وجدت مروة، لم تكن تصمت عن كلمة الحق أبدًا، ويرق قلبها لكل من هو في موقف ضعف.

كانت حادة كالسيف، وفي الوقت ذاته رقيقة القلب مع الجميع، كنت أجد مروة واقفة في وسط الطلاب تشجعهم على استرداد حقوقهم من أستاذ ما، ثم بعدها بدقائق تجدها جاثية على ركبتيها تطعم قطًا جائعًا.

أحببت مروة كما لم أحب أحدًا، ومن لم يحببها؟ أمي أحبتها كذلك، ورحَّبت بها، أخبرتني عن كل شيء يخص عائلتها، كانت مروة مثلي، ابنة وحيدة لوالدها، ماتت أمها وهي في المرحلة الإعدادية، وبقيت هي مع والدها، كان رجلًا ميسور الحال بقدر مقبول، تقريبًا كنا في المستوى الاجتماعي والمادي ذاته، إلا أن والدها كان يملك أرضًا كبيرة تدر عليه دخلًا سنويًّا مقبولًا بجوار معاشه الشهري.

أخبرتني مروة بأمر تلك الأرض وبأمر عمها، وقالت إنها تشك أنه يسرقهم، وأنها لم تحب ذلك الرجل أبدًا، ضحكت ذات مرة وهي تخبرني أن في بلدتهم يعتبرون عمها شيخًا فاضلًا، وأن له كرامات، يلتف حوله العديدون، يقبِّلون يديه، ويتمسحون في عباءته، حتى والدها كان يعتقد أن لأخيه كرامات، وكان يرفض كلام مروة عن أن العائد الذي يرسله العم من إيراد الأرض ضئيل للغاية، ولا يتناسب مع حجم الأرض، كان والدها يخبرها بما يخبره به أخوه من أن الأرض قليلة الخصوبة، وإنتاجها ضئيل.

قالت لي مروة إنها تكره ملامح ذلك الرجل: وجهه، أنفه المنصوب، شفتيه الرفيعتين، وتلك الابتسامة اللزجة. وكم كانت محقة!

لم تُولَد مروة في بلدتهم الريفية رغم أن والدبها فعلًا، تزوج والدها من ابنة صديق والده وجارهم، ثم انتقل معه زوجته إلى الإسكندرية بسبب وظيفته الحكومية المستقرة، ثم تأخرا في الإنجاب لسنوات

طالت، تحدث إليهم فيها القريب والغريب، وحاول العديدون إقناع الرجل بالزواج بامرأة أخرى، إلا أنه رفض، وأخيرًا أنجبا مروة، لهذا كان الرجل يحبها أكثر من روحه، وزاد تعلقه بها عندما توفيت والدتها، و لم يفكر في العودة إلى بلدته مرة أخرى بعد أن وصل إلى سن المعاش؛ لأن ابنته ارتبطت حياتها ودراستها بالإسكندرية، ولم يشأ هو تغيير نمط حياتها رغم إلحاح أخيه بالعودة إلى بلدته.

تعرفت إلى والد مروة في عامنا الدراسي الثالث، كان رجلًا طيبًا بشوشًا، أحببته منذ اللحظة الأولى، ورغم أنني حينها كنت لازلت طالبًا قابلته على أحد المقاهي، إلا أنه لم يرفضني بل على العكس تمامًا، كان يحب مروة ويرغب في توفير كل ما تحبه وتحتاجه، يعلم أنه بعد عمر طويل سيتركها وحيدة، لذا كان يريد لها زوجًا تحبه ويحبها؛ ليحافظ عليها، وأعجبته أنا كما قال.

قال لي: "يبدو أنك من عائلة محترمة، ويكفيني أنك ستحافظ على ابنتي، أما الأمور المادية يمكننا تدبرها".

من وجهة نظري، كان كل شيء ميسرًا. اتفقنا على أن نتم خطبتنا عقب إنهاء دراستنا، ورحب هو بذلك، وبالفعل بعد انتهائي من الدراسة مباشرة، وجدت عملًا جيدًا بدخل محترم، وكانت والدتي قد وفرت لي مبلغًا من سنوات عملي الطوال يمكنني دفعه كمقدم

لشقة، ربما كان المبلغ ضئيلًا، لذلك كنت أبحث عن شقة في بعض الأماكن البعيدة، لكن مروة لم تمانع.

اتصلت بوالدها، واتفقنا على موعدٍ آتي فيه مصطحبًا والدتي وخالي لإتمام الاتفاق، وأخبرتني مروة أن عمها سيكون موجودًا.

- من اللحظة الأولى التي دخلت فيها منزلهم، لم أرتح لعمها، كان كما وصفته مروة، رجلًا لزجًا ثقيلًا على النفس، ربما كان ذو لسان معسول، إلا أنه لم يكن مريحًا، كانت أسئلته كلها تدور حول الجانب المادي، رغم أن والد مروة نفسه لم يسأل في تلك الأمور، واتفقت يومها مع والد مروة على كل شيء؛ على موعد الخطبة، وحتى على الشبكة، وأخبرته بأمر مقدم الشقة، وحددنا موعدًا للخطبة، ثم خرجنا من منزلهم ونحن سعداء.

في اليوم التالي، علمت من مروة أن عمها حاول إقناع والدها أنني لازلت في بداية الطريق، وأن أمامي الكثير لأسعد ابنته، وأخبره أنه كان يريد تزويج مروة لحسام ابنه، وكان ينتظر أن تنهي مرةو دراستها الجامعية ليفاتحة، قال أن حسام بمروة أولى، وأن بزواجها من حسام سيعود هو للبلدة ليحيا بجوار قبر والديه، ويرعي أرضه.

أخبرتني مروة أن الرجل ظل ساهرًا مع أخيه يحاول إقناعه بشتى الطرق، إلا أن والد مروة رفض أن يكسر قلب ابنته برفضه لي، وقال أنه ما تختاره مروة سيوافق عليه مهما كان.

قابلت مروة في اليوم التالي لنتحدث في بعض التفاصيل، لكنها لم تكن في حال جيد كما توقعت، أخبرتني يومها أن كابوسًا راودها؛ كانت تقف في ساحة كبيرة ، ووالدتها كانت على جانب الساحة، لكن بينهما حاجز لا تدري كنهه، لكنها كانت ترى والدتها تصرخ، إلا أن الصوت لم يصل إلى مروة، حين التفتت، وجدت ثعبانًا ضخمًا يقترب منها، وكلما حاولت الجري كان يقف أمامها، كانت مروة لا تزال خائفة حين قابلتها، حاولت الترفيه عنها، واصطحبتها إلى الصاغة لاختيار الشبكة، ووقع اختيارها على واحدة، اتفقنا على أن نحضر والدتي ووالدها في اليوم التالي لنشتريها معهم.

عدت إلى المنزل، وأخبرت والدتي عن الحلم ، كانت بارعة في تفسير الأحلام ، لا أدري لماذا انقبض قلبي لحلم مروة، ربما بدرجة تفوق قلقي من حديث عمها، لذلك رويته لأمي دون الخوض في حديث زواجها من حسام، توقعت أن تقول أنها أضغاث أحلام كما اعتادت أن تقول كلما أخبرتها بكابوس أو حلم سيىء، لكن هذا لم يحدث، على العكس تمامًا تغير وجهها واكفهر، قالت أن شرًا يحيط بالفتاة، حاولت استيضاح الأمر منها، إلا أنها صمتت ولم تخبرني بغير ذلك.

توقعت أن هذا الشر هو رغبة عمها في تزويجها من ابنه، ولن أخفيكم سرًا أرعبني هذا الهاجس، لا أدري حجم تأثير عمها على والدها، لذلك اتصلت بها وسألتها عن كل تفاصيل ابن عمها حسام،

رغم أنني حاولت ألَّا أبدي ردَّ فعل وقت حكت لي، إلا انني لم أستطع، وببساطة أخبرتني أن عمها السيد برهان، أو "الشيخ برهان" كما يلقبه أهل بلدته، قد انفصل عن زوجته منذ سنوات، أخبرتني أن حسام يكبرها بخمس سنوات، وحينما كانت في بداية المرحلة الإعدادية، في نفس توقيت مرض أمها، سمعت أن عمها قد انفصل عن زوجته فاطمة، قالت أن السيدة فاطمة طيبة وبسيطة، وكانت مروة تحبها، لذلك أدهشها أن يطلقها عمها، لم يعلم أحد سر ذلك الانفصال، ولم يتدخل أحد، فقد كان وقتها والدها ومروة مشغولين بمرض والدتها الغريب.

عانت الأم من مرض غامض عجز الأطباء عن تشخيصه أو علاجه، واحتار زوجها معها، ودار بها على كل أطباء القاهرة والإسكندرية المشهور منهم والمغمور دون جدوى، حتى الشيوخ والدجالين اتجه إليهم، ولا بادرة واحدة في تحسن حدثت، حينها كانت الأسرة في أفضل حال، بل أنهم فكروا في بيع جزء من الأض والانتقال لمنزل أوسع حين سقطت الأم مريضة.

كانت تعاني من أعراض مختلفة غير مترابطة؛ فتارة تشكو من آلام شديدة في المعدة وقيء متواصل، مما يؤدي إلى الجفاف، وتارة أخرى من صداع حاد في رأسها وعنقها، حتى أنها كانت تصرخ من شدة الألم، ولم تكن تستطيع تنام، فكلما غفت، أحكمت الكوابيس

قبضتها حولها حتى تستيقظ صارخة مرعوبة، تحتاج لربع ساعة على الأقل لتهدأ، وبعد شهور من المعاناة رحلت.

بعد وفاة والدتها بعدة سنوات، حاول والدها إقناع برهان بإرجاع زوجته فاطمة إلى عصمته، لم يُبدِ عمها أيَّ رد فعل وقتها، لا رفضًا ولا موافقة، مما شجع والد مروة على محاولة إقناعها، لكن بعد أن زار فاطمة وتحدث معها طويلًا قالت: "أنت حقًا شخص طيب يا أبا مروة، فمجيئك حتى هنا يجعلني أتاكد أنك لازلت سليم الطوية، لكنني أرجوك ألَّا تحاول التدخل في هذا الأمر، فلن أعود إلى أخيك مهما حدث".

لم يحاول والد مروة مرة أخرى، كيف يفعل وفاطمة كانت صارمة.

وكانت مروة سعيدة بغيرتي عليها، تأكدت من حبي لها بسؤالي عن حسام، وكأنها كانت بحاجة لتأكيد، وأراحني أنا تفسيرها ذلك، كنت خائفًا أن تفسر سؤالي بأنه شك، والأهم أنها أكدت أنها حتى لا تذكر شكل حسام ذلك، واعتقدت هي أن رغبة عمها في تزويجها لولده رغبته هو، وأن غالبًا حسام نفسه لا علم له.

تمت الخطبة، وحضر الأفراد القليلة الموجودة من العائلتين، إلا أن زوجة عمها وابنها حسام لم يحضرا، لم يدعوهم أحد، ولكن على كل حال كان يومًا جميلًا، وكأن كل شيء حلمت به يتحقق، بعدها بدأنا أنا ومروة في البحث عن شقة مناسبة شكلًا ومكانًا وسعرًا،

بالطبع طال بحثنا لشهورٍ، إلا أن الله يوفق الساعي، لذلك وجدنا واحدة أخيرًا، ودفعت مقدمها، واتفقنا على الأقساط المتبقية، كانت الشقة بعيدة، لكنها جميلة وفي موقع مناسب، الكل كان سعيدًا، أو هكذا ظننت أنا فوالد مروة لم يكن.

اتصل بي بعدما شاهد الشقة، وطلب مقابلتي وحدنا دون علم مروة، اندهشت لطلبة إلا أنني ذهبت لمقابلته بعد انتهاء عملي، أخبرني أن الشقة بعيدة جدًّا، من الصعب عليه زيارة ابنته كثير أو يوميًا، وأنا في عملي كما كان يخطط، قال أنه لا يملك من الدنيا سواها، لذلك كان يريدني أن أتراجع عن شرائها وأستعيد المقدم، وفي المقابل سيبيع جزءًا من أرضه ويساعدني بثمنه في دفع مقدمًا لشقة أقرب له ولوالدتي، لم يعجبني الأمر، ورفضت ذلك، وأخبرته أنه مرحب به للانتقال للحياة معنا، قال ومن لوالدتك إذن وماذا لو أردات هي المجيء، فطلبت منه أن يمهلني فقط بضع سنوات حتى أتمكن من شراء شقة أقرب، وأن ذلك وعد مني، ولكن دون أن يحاول منحي مالًا.

لم يقتنع بكلامي رغم أنه أبدى أمامي الاقتناع، و في اليوم نفسه اتصل ببرهان، وطلب من أن يشتري جزءًا من الأرض أو يعرضها للبيع.

رفض برهان الأمر بحدة، وصرخ في أخيه قائلًا إن الأرض لن تُباع، تفاجأ والد مروة من طريقة أخيه وحديثه، وقال بحدة إنها أرضه،

وأنه حر في التصرف بها، وإن عائد الأرض أصلًا ضعيف، لا يساعده بما يكفي، خاصةً أن ابنته على وشك الزواج، وأنه في حاجةٍ للمال لجهازها.

صمت برهان قليلًا، ثم قال لأخيه:" أنا آتٍ غدًا لنتحدث ".

لم أعلم بكل ذلك حينها، كل ما علمته من مروة وقتها هو أن عمها أتى لزيارتهم، وأنه لأول مرة سوف يبقى عندهم لعدة أيام، كانت مندهشة، أخبرتني أنه لم يفعل ذلك مطلقًا، بل على العكس كان دائمًا والدها هو من يصطحبهم للبقاء في بيت جدها في البلدة لعدة أيام.

لم يفاتحني والد مروة في الأمر مجددًا، مر شهر كامل على تلك الواقعة، انشغل الرجل عني لأسبوع كامل مع أخيه، ثم سافر الرجل وعاد كل شيء كما كان، ثم بدا شيئًا غريبًا يحدث؛ مرضت مروة بأعراض مشابهة لأعراض والدتها، في بداية الأمر كانت الكوابيس، هناك كابوسان يا رفاق لم أنسَهما أبدًا: الأول كانت تحلم أنها في غرفتها التي ينيرها ضوء القمر الذي يتسلل عبر النافذة ، حلمت أنها تستيقظ في منتصف الليل، يتصبب من جبينها، تتنفس بصعوبة، تشعر وكأن شيئًا يضغط على صدرها، وترى ظلالًا تتحرك على الجدران، يراودها شعور بالخوف والقلق، وبأن شخصًا ما يراقبها،

استدارت نحو المرآة لترى انعكاسها، لكنها تتفاجأ برؤية وجه غير وجهها، وكأن هناك شيئًا مظلمًا يتجسد في عينيها.

في حلمها صرخت قائلة "ما الذي يحدث لي؟ لماذا أشعر بهذا الألم؟"، لم يجيبها أحدٌ، وبدلًا من ذلك بدأت أسلاك رفيعة تمر من حولها، تتشابك في جسدها وتؤلمها، تشعر بوخزات حادة في كل مكان، وكأن شيئًا ما يحاول سحب روحها ، اشتد الألم، فصرخت في خوف :: "إسلام! أين أنت؟ ساعدني!" ولكني لم أجِبها، استيقظت يومها خائفة حتى أنها اتصلت بي، أيقظتني من النوم وحكته لي.

أما الثاني، فكان خاصًا بعمها، لم تظهر هي فيه، كانت أحجى غرف عمها، كانت الغرفة مظلمة تضيئها فقط الشموع الموزعة في أرجاء الغرفة، وتظهر ظلالها على الجدران.

كان العم يجلس على طاولة قديمة مغطاة برموز سحرية وأدوات غامضة، في زاوية الغرفة، توجد دمى وشعائر غريبة تبدو كأنها جزء من طقوس قديمة، الهواء مشبع برائحة الأعشاب المحترقة، وتسمع أصوات همسات غير مفهومة، يمسك عمها ثعبان بيده وهو يهمس لنفسه بكلمات مبهمة غير مفهومة، وأمامه كتاب قديم يقرأ منه، تتلألأ عيناه بشغف غير طبيعي، وهو يضيف مكونات غريبة إلى وعاء صغير، فجأة، يبدأ الوعاء في الغليان ويخرج منه دخان كثيف.

ثم يخرج من جيبه خيوطًا رفيعة، ويبدأ في تشكيلها على شكل شبكة، مع التركيز على خيوط واحدة من بينها، يسحب خيطًا رفيعًا ويهمس بجملة غامضة، ليتمتم "مع كل خيط، سأنسج مصيرها".

ثم ضرب الطاولة بعنف، فتشتعل شمعة سوداء في ركن الغرفة، مما يجعل الظلال تتراقص في الغرفة بشكل مرعب.

كانت أحلامها كثيرة بعضها له معنى، وبعضها غير مرتب، ولكن لم يكن أي حلم آخر كهذين الحلمين، كانا واضحين بتفاصيل مرعبة، مَن منا يحلم حلمًا بهذا الطول ويستيقظ متذكره؟ ومَن يستيقظ ليجد علامات الخيوط في جسده من الحلم الأول وبقايا شمعة سودا محترقة في ركن الغرفة؟

بعدها بدأت الأعراض الباقية، بدأت تشكو من آلام متفرقة في جسدها، آلام كانت تأتي وتذهب دون سبب واضح، أبدت شبيهة بشكل كبير بما أخبرتني به عن مرض والدتها الراحلة، كانت تشعر بصداع مستمر وألم في عنقها، بالإضافة إلى ضعف عام في جسدها، في البداية ظننت أنها مجرد إرهاق ناتج عن تحضيرات الزواج والعمل، لكن مع مرور الوقت، أصبحت الأعراض أكثر حدة، وكانت تزداد حدتها كلما زرتهم أنا في المنزل أو حتى خرجنا سويًا.

كان والدها مرتعبًا، وكذلك أنا أقسم لكم، كنت واثقًا أن للعم يدًّا في الأمر، وأن لأحلامها معنى، ولكن كنت أخشى سؤال أمي، كنت أخشى

أن تبدأ الخلافات لو علمت بما حدث من عمها، جربنا الأطباء لكن بلا فائدة، الكثير من التحاليل والأشاعات، ولكن لا شيء.

تفاقم الأمر حتى جافاها النوم، وكلما غفت كانت تلاحقها كوابيس مفزعة تجعلها تستيقظ مرعوبة، وأصبحت الكوابيس جزءًا من لياليها بشكل لا يطاق.

قال بعض إنها تعاني من توتر نفسي شديد، بينما اقترح آخرون أن تخلد للراحة، لكني لم أقتنع؛ مروة دائمًا كانت قوية، متماسكة، ولا أعتقد أن مجرد توتر نفسي يمكن أن يسقطها بهذه الصورة، ولكن تنفيذًا لما طلبه الأطباء قرر والدها السفر بها للبلد لفترة، لعل ذلك يريح أعصابها، ولا أخفيكم سرًا زادت مخاوفي بسبب ذلك، وفي اليوم التالي ذهبا إلى عمها برهان لأول مرة منذ فترة طويلة، شعرت أن الأمور قد تتجه نحو الأسوأ، حاولت منعها، لكنها قالت إنها لا تستطيع أن تعصي والدها، ويكفي ما سببته له من متاعب حتى الآن.

في اليوم الذي ذهبت فيه مروة إلى البلدة، شعرت بتوتر غريب. لم أستطع التخلص من ذلك الإحساس الذي كان يخبرني أن الأمور لن تسير بشكل جيد. اتصلت بها عدة مرات، لكنها لم تجب، زاد ذلك من قلقي، وتذكرت كل ما سمعته منها عن عمها برهان، بعد ساعات من الانتظار، تلقيت أخيرًا رسالة منها، كانت مختصرة: "كل شيء على ما يرام، سنعود قريبًا".

لكني لم أشعر بالاطمئنان، كانت كلماته محددة تحمل نبرة غير مألوفة.

انقطعت الاتصالات مع مروة، كنت كلما أردت الاطمئنان عليها اتصل بوالدها، وكلما طلبت منه أن أتحدث اليها تحجج بحجج واهية، كان قلبي يحدثني أن مكروهًا أصابها، لكن عقلي رفض الفكرة، لو أن مكروهًا أصابها لما تحدث والدها بكل هذا الهدوء؟

كما أنه يؤكد دائما أنها بخير، لم يكن الأمر مطمئنًا على أي حال، لو أنها بخير كذلك لما لا تتحدث إليَّ؟ في الأحوال العادية لم تكن مروة تطيق أن يمر يومٌ دون أن تتحدث لي، فماذا حدث؟ كان الأمر يقلقني حتى أنني فكرت أن أذهب لبلدتهم لأطمئن، لكن حين تحدثت لوالدها أخبرني أن مروة في خير حال، وأنهم قادمين بعد يومين فقط، كان صوته سعيدًا منشرحًا، لهذا اطمئن قلبي أنها فعلًا بخير، وبقى فقط أن أعرف لماذا تجاهلت اتصالاتي طوال تلك الفترة.

عندما عادت مروة ردت على هاتفها أخير، سألتها بلهفة عن سر ذلك الانقطاع، وأجابتني بلهفة أكبر أنها افتقدتني، وأنها ستقص عليَّ القصة كاملة حين آتي إليها، ولم أستطع الصبر حتى أنهي عملي، بل حصلت على إذن خروج مبكر، وهرعت إليها مشتاقًا قلقًا.

كانت تبدو أفضل حالًا، استعادت بعض من وزنها الذي فقدته وبوجهها أكثر إشراقًا، وأخبرتني القصة، كان ذلك البرهان الخبيث وراء القصة كلها، حين ذهبا لقريتهم، وفي ساعاتهم الأولى .. دب خلاف بين أبيها وعمها بسبب قصة بيع الأرض، تحدث العم عن وصية الأب بعدم بيعها وعن ضرورة رعايتها، وتحدث الأب عن ابنته وصحتها وزيجتها التي يجب أن تتم، كان الجو مشحون بالتوتر، لهذا لم تستطع أن تتحدث لي، وانقضى اليوم بالصلح بين الأخوين، خاصةً أن هذا اليوم كله انقضى دون أن تشعر مروة بأي إعياء، وأكلت للمرة الأولى منذ فترة وجبة كاملة دون أن تتقيأ أو تصرخ من ألم معدتها، واستبشر الأب خيرًا، وقال العم أن البنت تميل للأرض وتصح بالبقاء قربها، وفي اليوم نفسه نامت مروة قريرة العين دون أحلام حتى، في اليوم التالي بدت أكثر إشراقًا وصحة، وهنا تدخل عمها، أخبر والدها أنه يشك أن المشكلة تكمن بي أنا، قال نصًا كما أخبرتني: هذا الولد ملبوسًا أو ممسوسًا، وربما قرينته تكره ابنتك، لهذا كلما كانت بقربه مرضت".

كانت مروة تضحك وهي تخبرني بذلك ألا أن قلبي سقط بين قدمي، عمها لازال يسعى إذن لتخريب الزيجة، لهذا فقد منعها من التحدث إليه، وطلب من الأب أن يجاريه ويجربا، ولم تشأ هي أن تعصي والدها أو تناقشه فيما طلب، خاصةً في حضور العم.

كانت ترى أن الأمر بسيطٌ، ولكني كنت أعلم أن هناك خطبًا ما، الأمر لا يبدو بتلك البساطة التى تتحدث هي بها، هي منتشية بصحتها التي عادت، لهذا هناك خللًا في تقييمها للأمر، هناك سحر سقطت فيه مروة بسبب عمها برهان، كانت تصرفاته بجوار أحلامها رسالة واضحة،رغم هذا حاولت التغاضي عن الأمر وأنا أسمعها تحكي لي بحماس عن أيام بقائها في القرية، خاصةً حينما جاءت سيرة حستم، لن أنكر كنت خائفًا من يكون اختفاؤها وراؤه هذا الشاب، إلا أنه أكدت أنه أخبرها هو ووالدته أن لا علم لهم بالأمر، بل أن حسام يحب فتاة ما ويرغب في الزواج منها، كانت محقة الشاب ليس سيئًا بقدر والده.

مر وقت وجودي سريعًا، وكانت هي جميلة وبصحة جيدة، شعرت أنها عادت لي، اطمئن قلبي عليها، وجلست مع والدها قليلًا ثم استأذنتهم لأرحل، قاما معي ليوصلاني لباب الشقة، وقفت مروة بعيدة نسبيًا عن الباب، ووقف والدها حتى أرتدي حذائي، فجأة سمعت صرخة جمدتني مكاني، أمامي على الأرض كانت مروة كانت تصرخ ممسكة بطنها والدماء تخرج من فمها وأنفها.

نقلناها للمشفى سريعًا وسط حالة من الزعر سيطرت علينا جميعًا، هناك استطاعا السيطرة على النزف، وتم حجزها في العناية المركزة مع الجملة المعتادة، لا نعلم ما بها سنحتاج بعض التحاليل

والأشاعات، نظر والدها لي بغضب، وصرخ في وجهي قائلًا:" أنت السبب، ابتعد عنها ". ثم لكمني بكلتي يديه في صدري، وتركني وابتعد.

هل ترون أن ما كان يجري كان طبيعيًا، مؤكد لا ولا أنا رأيت ذلك، لهذا فقد خرجت من المشفى متجهًا لتلك القرية التي يحيا بها برهان، لم يهمني أن الوقت متأخر ولا أنني لم أعد للمنزل اليوم ولا أي شيء، فقط اتجهت لبرهان.

وصلت بعد الفجر، ولم أنتظر أتجهت مباشرة للمنزل بناءً على وصف بعض الخارجين من الصلاة، تعجبت أني لم أرَ الشيخ برهان بينهم، إلا أنني حين سألت أجابني أحدهم أن الشيخ يصلي مع جمع من أولياء الله الصالحين الراحلين اللذين يزورونه في منزله يوميًا!

لتلك الدرجة كان الرجل قادرًا على غسل أدمغتهم، ولكن لكزة رجلٌ مسنٌ في جمبه قائلًا "حاشا لله يا رجل، استغفر ربك، وكف عن ترديد كلام ذلك الأحمق الفاسد".

كان هناك من يرونه أحمقًا فاسدًا أيضًا، أراحني ذلك جدًّا، اتجهت لمنزله ودققت الباب كثيرًا، نصف ساعة انقضت قبل أن يفتح الرجل الباب بعين منتفخة من النوم، وشعر أشعث، أدخلني ممتعضًا وهو يسأل بصلف: " ماذا جاء بك؟"

اختفت الآن بغياب الناس تلك اللزوجة والكلمات المعسولة المنافقة، وظهرت حقيقته، كان يتحدث بضجر واضح، ولم أكن أقل منه ضجرًا، أجبته قائلًا: " لا شيء، أرغب فقط في توضيح .. مروة تنزف في المشفى الآن، قل لى ماذا يحدث ".

تثائب في كسلٍ، ورد قائلًا: " أخبرت أخي ذلك، يبدو أنك ممسوس يابني، أو ربما قرينتك تكرهها ".

انتفضت واقفًا بعصبية وانا أصرخ قائلًا: " دعك من أمور الدروشة هذه، وأخبرني ماذا فعلت ".

نظر لي بغضب، وأشار بيده أمرًا " اجلس وتحدث بأدب .. لا تنسَ أنك في منزلي ".

لم أجلس، وظللت أنظر إليه بالغضب ذاته، ورددت باللهجة نفسها : " ما يحدث واضح، أنت سحرتها ".

رفع حاجبيه في دهشةٍ، ثم ضحك باستهتار قائلًا: " حسنًا، إذن أيها العبقري وما دليلك؟"

أجبته قائلًا: " دليل؟ وأي دليل أوضح مما يحدث ".

واندفعت يا رفاق أقص عليه أحلام مروة وما وصلت له من ربط للأحداث، صمت لثوانٍ ثم عاد بظهره للخلف، وقال ببطء: " حسنًا؛ إذن يبدو أنك أذكى مما توقعت، لم يكتشف أحدهم ذلك

مطلقًا، ولكنك لن تستطع فعل شيء، مروة إن تزوجتك تموت، وإن أخبرتها بذلك، يمكنني أيضًا جعلها تموت، لن تتزوجها مهما فعلت، ولن تتمكن من فك السحر ".

ثم نهض واقفًا، وفتح الباب قائلًا: " لا تعد هنا مجددًا، وأن شئت إنقاذها ابتعد عنها ".

ابتعدت لعدة ايام ، ترددت فيهم على كل شيخ أخبرني به أحدهم، الدجال منهم والصادق، أجمع الكل على أن سحرًا كهذا صعب فكه، إن لم أجد العمل نفسه، لم يكن أمامي سوى تركها، كانت تموت معي.

زرتها أخيرًا في المشفى، تصيدت الوقت حتى خرج والدها من عندها حتى لا يراني ودخلت لها، كانت حالتها مريعة؛ عيناها متورمتان من البكاء، ووجهها شاحب، سألتها عن ما حدث، قالت :" لا أعلم، فجأة شعرت أن الأرض تميد بي، وأن الألم هاجمني بقوة".

ثم صمتت قليلًا، وقالت بصوت مختنق، والدي مصمم على إنهاء خطبتنا، كنت أصلًا قد أتيت لأفعل ذلك، ولكني أجفلت من كلمتها، نظرت لي بإشفاق، فتحدثت أنا قائلًا:" معه كل الحق، ظانتي تموتين بجواري".

وأنا قادمٌ كنت مصرًا على إخبارها بشأن عمها، ولكن تهديده ألجمني، ذلك الرجل لا يحب أحدًا، ولا يعنيه كثيرًا لو قتلها، لهذا فضَّلت الاستسلام والصمت خوفًا عليها، أعلم أن الفراق كان قاتلًا لكلينا، ولكنه قتل معنوي، على الأقل ظلت على قيد الحياة.

لم يمر وقت طويل حتى علمت بأمر زواجها من حسام، لا أخفيكم سرًّا اندهشت، لا هي تحبه ولا هو أحبها، يبدو أن الرجل كان حقًا يعرف ما يفعل، كان يتحكم في مصائر الناس بالسحر، ثم وصلتني عنها أخبار متقطعة على فترات، هي الآن أم لطفلين.

رغم هذا كنت أتساءل كل فترة ، لماذا كان الرجل مصرًا أن يزوج مروة لابنه؟ هل هي الأرض؟ كان الأولى به أن يقوم بعمل سحر لأخيه نفسه ليترك له الأرض، كان الأمر محيرًا لي حتى سمعت منذ عدة أشهر بوفاة والد مروة، هل تصدقوني أن قلت أن وفاة الرجل أثرت بي؟ كنت أحبه و أشعر أنه الأب الذي عوضني الله بوجوده، لهذا فقد قررت أن أتصل بمروة لأداء واجب العزاء.

عندما جائني صوتها شعرت أن قلبي يكاد يفارق ضلوعي، كان الصوت نفسه رغم الحزن والسنون التي مرت، هل تصدقون أنها لم تتعرف إلى صوتي؟ كانت في البلد، سمعت أنها عادت واستقرت بعد زواجها هناك، في البداية كان حديثي عن وفاة والدها فقط، وأنني

اتصلت لتأدية واجب العزاء، ولكن رغمًا عني بدأت أسال عن حالها، فقلت:

" هل أنتِ سعيدة ؟"

كنت أظن أنهم أرغموها على الزيجة، ولكنها قالت بضجر: " أعتقد أن ذلك ليس من شأنك".

اختنق صوتي وقلت : " حسنًا آسف، ولكني لم أستطع تخطي ما حدث، وكنت قلقًا".

ردت قائلة بنبرة حادة : " أنا بخير يا إسلام، أحب زوجي جدًّا، وأنا سعيدة معه، وحقًا نسياك ولا أرغب مجددًا في التحدث إليك ".

ثم صمتت ثوان وقالت بنبرة أقل حدة وبصوت منخفض : " الكثيرون حولي الآن يا إسلام عفوًا يجب أن أغلق الخط، شكرًا لاتصالك".

كان المكان هادئ حولها، فقط أرادت إنهاء المكالمة، طبعًا لم أعترض كان اتصالي خطأ من البداية، وحتى لو أردت الاعتراض لم تمهلني هي فقد قالت ذلك، وأغلقت الخط مباشرة.

اعتقدت أن الأمور انتهت هنا، اتخذت قرارًا ألَّا أتحدث لها مجددًا وألَّا أتابع أخبارها أبدًا، ولكن جائني منها اتصالٌ منذ عدة أيام،

ترددت في الإجابة ولكن حين كررت الاتصال للمرة الثانية أجبت، وحكت لي هي ما تبقى من القصة.

قالت بصوت باكٍ مرتجف: " ظلمناك بيننا يا إسلام، اتصل بك الآن لأطلب منك أن تسامحني، وأبي أمام الله، لم يكن لنا علم ولا بأيدينا حيلة.

حين تحدثت لي بعد وفاة أبي، سمع عمي تلك المحادثة، أغلقت الخط واستدرت، فوجدته ينظر لي نظرة نارية وهو قابض على مقعد خشبي أمامة بغلٍ، اعتقدت أنه سمع المكالمة كاملة، ولكن يبدو أنه فقط استمع للجزء الأخير فقط، كان غاضبًا وقال كلمة واحدة (حسنًا، أنتِ اخترتِ مصيرة)، لم أفهم ما قال وحاولت أن أوضح الأمر لكنه تركني ودخل غرفته صافقا الباب خلفه، بالطبع أخبرت حسام بأمر اتصالك، ولم يبدِ رد الفعل نفسه وإن أزعجه الأمر، نسينا تلك الحادثة، ومرت أيام طويلة وأنا اعتقدت أن عمي نسى الأمر، أنا نفسي نسيته، حين استيقظت يوما على بكاء ابني ، بعد أن أسكته خرجت للأطمئنان على أحوال المنزل ، سمعت جلبة بسيطة وهمهمات من غرفة تخص عمي ويحظر دخولنا إليها، لم تكن عادتي أن أتجسس، ولكني رغمًا عني اقتربت، ونظرت من فتحة الباب فوجدت منظرًا شاهدته من قبل يا إسلام ، شاهدته في أحلامي، عمي كان جالسًا على كرسي خشبي عتيق، والغرفة مظلمة ووجهه

يكتسب تعبيرًا غريبًا قاسيًا، الأضواء تتلألأ من شموع حوله، كما لو كانت تتفاعل مع مشاعره، ومن حوله أصوات همسات وهمهمات، كان هو نفسه يهمهم بكلمات مبهمة من كتاب قديم أمامه، وفي يده دمية قماشية يقربها من فمه، ويهمس بكلمات في أذنها، كانت الدمية صغيرة ومع ذلك ميزت قطعة قماش ملفوفة حول وجهها، كان لون القماش مميزًا؛ لأني كنت قد اشتريت تلك البيجاما من الإسكندرية قبل القدوم هنا، كانت الأجواء واضحة، الشموع الهمسات الدمية وتلك الطلاسم على الحوائط، كنت ضحية سحر يا إسلام أنا وأنت، اعتقدت أن السحر لي ولم أستطع المواجهة، وعدت لغرفتي أرتجف غير قادرة على اتخاذ أي قرار، عندما طلع النهار أخيرًا، واستيقظ زوجي أخبرته، كان متعبًا، ولكنه ذوى ما بين حاجبيه، وانتفض قائلًا انتظري هنا، نزل حسام للغرفة وفتحها عنوة، استيقظ عمي على صوت كسر الباب، كانت الغرفة مليئة بكل ما أخبرته به، شموع محترقة، دمية ملفوف وجهها بقطعة من ملابسي غرس في صدرها عدة دبابيس، جثة غراب ملقاة أرضًا والكثير من الطلاسم، صرخ عمي قائلًا (ماذا تفعل ؟) ، استدار حسام بأنفاس متقطعة قائلًا

(وعدتني أن تتوب إلى الله وتكف عن ذلك، إلا زوجتي)، ضحك عمي بسخرية وهو يقول (الآن تحبها، ألم تكن تحب ابني الكلاف،

أنا من زوجتكما، وذلك السحر الذي تكره هو من جمعكما، والآن أنا أنقذ تلك الزيجة، زوجتك لا زالت تحب خطيبها السابق، وانا أخلصكما منه، أقتل لها من أحبت) ، كنت واقفة أعلى درجات السلم أستمع لهم، فهرولت مسرعة تجاه حسام وأنا أقول (أقسم لك أن كل هذا افتراء .. كانت مكاملة واحدة أخبرتك عنها)، ضمني بيد واحدة وهو يقول(أنا أثق بها، كف عن التدخل في شؤوننا وابتعد عنها، أنت أبقيتنا هنا بقربك رغم عنا على الأقل كف عن ما تفعل) ، كانت أنفاسه تتقطع ويمسك بقلبه، ثم سقط أرضًا، كانت الدماء تنزف من فمه وأنفه بغزارة، ويده تضغط على قلبه وصدره، كان يموت أمامي وأمام والده يا إسلام ونحن لا نملك حيلة.

صمتت قليلًا ولم يصلني منها إلا صوت نهنهتها، كانت منهارة تمامًا، فاحترمت ذلك، وأثرت الصمت حتى تمالكت رابطة جأشها وعادت تكمل قائلة :" كان عمي يصرخ كالمجانين، كان يقول لم تكن أنت المقصود، كنت أرغب في قتل ذلك الذي تحب، كان يرددها كالماجذيب حين وقفت وقبضت على ياقة جلبابه، وصرخت في وجهه (كان حسام هو من أحب) ، أقسم لك أنني كنت يومها كأنني تحت تأثير بنج، كان شعوري متجمدًا كذلك إدراكي، كل شيء يحدث حولي وأنا تائهة، جاءت والدة حسام تصرخ وتولول، كان عمي لازال تائهًا يصرخ بنفس الكلمة (لم يكن هو .. لم يكن هو) ، لم يفهم

أحد قصده، كانت البلدة كلها تحب حسام لذلك كانت جنازته مهيبة، لم تتركني أمي فاطمة، كانت بجواري طوال الوقت وكانت تقول لي (أبكي يا ابنتي وتكلمي، لا أريد ان أخسرك أنت أيضًا)، جمدتني الدهشة ولم أستطع الحديث لثلاث أيام، حتى البكاء ما قويت عليه، في النهاية تحدثت وأخبرتها كل شيء وانا أبكي للمرة الأولى، انهارت تمامًا وهجمت عليه تحاول خنقه، كان صامتًا تمامًا، سقطت يده بجوارة دون مقاومة، لولا شددتها أنا وأنا اقول لا (لا يستحق أن تقتليه حتى، يستحق العذاب) ، لطمت خديها وهي تقول (هو ءنبي أكفر عنه، كنت أعلم أن ما ألم بأمك هو سببه ولم أقوَ على إخبار والدك، لقد تركته وطلبت الطلاق عندما علمت ما فعله بأمك أقسم لكي، حاولت أن أجبره على حل عقدة السحر ولكنه رفض وطردني)، لم أفهم لثوان فرددت (سحر لأمي)، انهارت تمامًا، وسقطت أرضًا وهي تقول (تنازل جدك عن الارض بالكامل لوالدك قبل وفاته، وكان عمك يخشى ضياع ٤٠ فدان من بين يديه لذلك لم يخبر والدك).. نظرت لها بفزع وأنا أقول (قال إنهم خمسة أفدنة)، قالت (هددني لو أخبرت والدك بولدي، قال لو أخبرته جنيت على ولدك وأنا خفت عليه يا مروة، ثم طلب والدك بيع فدان، وكان معنى البيع أن ينكشف الورق كله أمام والدك رحمه الله، كان عمك يرغب في استعادة الأرض، وذلك هو سبب إصراره على زواجك وحسام، خاصةً عندما علم أن والدك تنازل لكِ عن كل

أملاكه وصية رسمية مسجلة، كان حسام رافضًا ولكنه فجأة وافق.. علمت أنه سحر لكما، ولكن ما كان بيدي حيلة يا ابنتي، والآن قتل ابنه، عاقبنا الله يا ابنتي، ولكن أرجوك سامحيني عمك ظالم، ما كان لي أن أقف أمامه)، قتل أمي وزوجي وكاد يقتلك يا إسلام، بل كاد يقتلني أنا لأجل أرض تخيل ".

تخيلوا أنتم أنه لأجل الأرض فعل كل ذلك، كان الرجل لا دين له ولا رادع قضى على الكثيرين ثم مات ابنه، مات دون أن تعود له الأرض، بل مات والد مروة وهو لا يعلم أنه تنازل عن أربعين فدان لمروة، وليس خمسة كما كان يعتقد، ظلت الارض لمروة وولديها لم ينعم بها برهان ولا ولده كما خطط.

نظروا جميعًا لبعضهم بدهشة، سنوات طالت دون أن يتحدث إسلام عن شيء من ذلك، دام صمتهم لدقائق طالت حتى قطعها بهلول وهو يقول:

" نجينا من عقولنا يارب".

اتفضوا جميعًا حينما شق صوت البهلول الفضاء حولهم، كان الفجر اقترب والبرد قارس، حتى في جلستهم داخل القهوة كان البرد يجمدهم، ورغم ذلك لم يطلب منهم زقزق الرحيل، فقط أغلق الباب الزجاج، وافترش الأرض فوق مرتبة أظهرها من العدم ونام فوقها، كان معتادًا على ذلك في الليالي قارسة البرودة، ولكنه لم يكن نائمًا كان مستمعًا لحكايتهم، حتى وأن لم شارك فيها، أصبح زقزق عضوًا غير خفي في تلك الشلة وشريكًا أساسيًا في سهراتهم الشتوية بالأخص .

سحب وائل نفسًا طويلًا، ثم قال : " حبست الأمر في قلبك طويلًا يا صديقي، لماذا لم تشاركنا تلك القصة من البداية ".

نكس إسلام رأسه أرضًا دون أن ينطق ببنت شفاة، فوضع أسماعيل يده على كتفه قائلًا:

" أنت أقوى من كل ذلك يا إسلام، وأعتقد أنك بعد أن علمت باقي القصة الآن سوف تستطيع تجاوزها ".

قال إسلام بتردد:

" أعتقد أنني تجاوزت مروة نفسها، لكني لم أتجاوز قصة حبنا".

قال أحمد برقة لا تتناسب مع صوته الأجش:

" أعرف ذلك الشعور، أنت تفتقد إحساسك أنت وقتها، تفتقد نفسك وقدرتك على الحب ".

حاول حسين كتم ضحكة كادت أن تفلت منه على طريقة أحمد وقال محاولًا إضحاكهم:

" الجلوس معكم يجذب المرض والهم، الا أجد منكم واحدًا يروي قصة تفتح نفس الإنسان على الحياة ".

ضحكوا جميعًا، وقال إسلام:

" أحكِ أنت تلك القصة، منك نستفيد".

ضحك إسلام قائلًا بجدية غريبة غير مألوفة بالنسبة له:

"وهل يصح أن أكسر أنا تلك الحالة من الغم، أقسم أن أزيدكم من الشعر بيتًا، هيا اسمعوا قصتي، ولكن رجاء عدم التعليق على كلامي".

نظرا جميعًا لهم محاولين كتم ضحكاتهم، في حين تنحنح هو وٍحب نفسًا عميقًا وقال...

خطابات خالد

أنه خالد العربي يا رفاق، ومَن منكم لم يسمع نهاية قصة خالد العربي؟ جميعكم سمعتموها مني وكنتم بجواري حينها، ولكن أيا منكم لم يسأل عن القصة كلها، خالد العربي واحد من أكثر طلاب كلية الهندسة براعةً، ليس طالبًا عاديًا، بل هو ذلك المتفوق الذي تنبأ له الجميع انه سيكون واحدًا من هيئة تدريس الجامعة يومًا.

الجميع كان يحب خالد طلابًا وأساتذة، ربما لم نكن أصدقاء بالمعنى الحرفي للكلمةؤ ولكننا كنا رفاق مقربين، خالد في الأساس كان رفيقًا للجميع يساعد الكل، ويشرح لهم ما يلزمهم، ويوفر لهم ملخصات متبرعًا ورغم هذا لم يكن له صديقًا واحدًا معروفًا سوى والده .

في البداية في أول أيام عامنا الدراسي الأول كنا جميعًا نتعجب من علاقة خالد بوالده، فقد كان غريبًا أن يأتي إليه يوميًا ليصطحبه من الجامعة بالسيارة مهما كان موعد انتهاء المحاضرات مبكرًا أو متأخرًا، كان والده شخص طيب الملامح، تشعر أنك تعرفه وتألفه وتحبه من الوهلة الأولى، كان خالد طويل القامة يمتلك ملامح جذابة رغم حدتها، يمتلك عينين واسعتين، أما والده فقد كان قصير القامة ممتلئًا ذا ملامح تشع بالحب والدفء، ولكن له العينين

نفسهما، عينهما كانت تُشعرك دائمًا بالألفة والراحة، كان السيد مختار والد خالد دومًا مبتسمًا بشوشًا مرحبًا بالجميع حتى عامل النظافة في الجامعة الذي لا يعرفه أي منا كان يعرفه ويحبه.

في البداية كان الطلاب يسخرون منه بسبب انطوائه ووجود والده دومًا معه، ولكن بمجرد أن ظهرت نتيجة الترم الأول في الجامعة تغيرت نظرتهم ومعاملتهم .. ربما هي المصالح وربما بالفعل أدركوا أنه متميز ومختلف، أصبح الكل يتمنى أن يصبح صديقًا له، ولم يصد هو أحدًا، كان خدومًا مهذَّبًا مع الجميع حتى أنه صار عضوًا في اتحاد الطلاب، فقط ليوفر بعض امتحانات الأعوام الماضية، أو ليشرح بعض الأجزاء، أو يلخصها بعد استئذان أساتذة المادة.

لم يكن اجتماعيًا جدًّا، ولكنه رغم ذلك كان محبوبًا؛ لأنه لم يرفض يومًا لأحدهم طلبًا، كان بين هذا وذاك معنا في بعض الرحلات والأنشطة الجامعية، وأحيانًا لا نجده أبدًا حينها كنا نعلم أنه أما في مكتبة الكلية أو على الكافتيريا وحده دون رفيق.

لم أزر خالد في منزله سوى مرتين اثنتين قبل العام الرابع في الجامعة، لكن بعد ذلك تعددت الزيارات، المرة الأولى كنا مجموعة من الطلاب، وكنا نريده أن يشرح لنا جزءًا من المنهج، وكنا عددًا كبيرًا، لذا دعانا لمنزله بعد موافقة والده، منزلهم كان جميلًا للغاية، وقعت في حبه كما أحببت خالد ووالده، منزلهم قديم للغاية، يتألف من

ثلاثة طوابق يشبه في شكله الخارجي فيلا تحيطها حديقة جميلة، يوجد بها تكعيبة للعنب تحتها توجد عدة مقاعد مريحة، أما المنزل نفسه فقد كان يتكون من ثلاثة طوابق، كل طابق شقتين، والشقة ذاتها واسعة للغاية، ضعت بين طرقاتها حين طلبت الذهاب للحمام، أما غرفة خالد فقد كانت تقريبًا باتساع شقتنا، مريحة وجميلة وهادئة بعيدة عن الضوضاء، جلسنا مع خالد يومها عدة ساعات شرح لنا كل ما طلبنا وأكثر، يومها أصر والده على أن يحضر لنا الطعام جميعًا رغم عددنا الكبير، في ذلك اليوم أدركت مدى عمق العلاقة بين خالد ووالده، كانا بالفعل أصدقاء لا تشعر أن علاقتهما علاقة تقليدية بين أب وابنه، شاركنا السيد مختار جلستنا، وكأنه طالب معنا حتى أنه كان يسأل خالد في بعض الأجزاء فيشرحها خالد مجددًا، وكانت عيناه تشعان بالفخر والسعادة بولده، وفي نهاية اليوم طلب منا تكرار المجيء للمنزل، وشد على يدي قائلًا: " لا تتركوا خالد وحده ".

حين وصلنا لعامنا الدراسي الثالث كان لكل قد اعتاد على سلوك خالد المتناقض، عرفنا أنه دومًا يتأرجح بين حب المشاركة والانطواء، صرنا نشاركه حين يريد، ونتركه وحده حين يطلب، حتى جاءت أميرة.

أميرة غيَّرت كل شيء حين انتقلت من جامعة القاهرة إلى جامعة الإسكندرية، بعدما عادا والداها لمسقط رأسهم مرة أخرى بعد

خروجه على المعاش، كانت جميلة جدًّا .. لم يكن جمالها جمالًا شكليًا فقط، لكنها كانت جميلة في كل شيء، متوسطة القامة ، يحيط وجهها حجاب رقيق مثلها، أما وجهها فقد كان بريئًا مريحًا للغاية، وكنا جميعًا نلاحظ شبهها الكبير بخالد شكلًا وطبعًا، كانت مثله تفضِّل الانطواء، ولكن حين توجد في جماعة كانت تصبح نجم الجلسة، شديدة الذكاء متفوقة خدومة، وقد وجدت في خالد الشخص المناسب لها، وكأنها فولة وانشطرت لنصفين، كانا في البداية صديقين، وكانت المرة الأولى التي نجد لخالد فيها صديقًا، أصبحنا لا نراهما إلا سويًا، ولم يكن بينهما تنافس على التعيين الجامعي رغم تفوق كلاهما، بل بالعكس أصبحا صديقين قريبين للغاية، حتى أن والد خالد صار يشاركهما جلساتهما كلما أتى، بل وصار يتغيب عن الحضور لاصطحاب خالد لأول مرة منذ بدأنا الدراسة الجامعية، وكان منطقيٌّ أن تتطور تلك الصداقة سريعًا إلى قصة حب، لذلك لم يتعجَّب أحد حين بدأنا عامنا الرابع على خبر خطبة أميرة وخالد.

كان الجميع سعيدًا بهم، حتى الأساتذة صاروا يقولون أن الجامعة تستعد لاستقبال أستاذين جديدين متوافقين في كل شيء، وكان كل شيء يسير على ما يرام رائعين حتى امتحانات الفصل الدراسي الأول، ثم انقلب الحال رأسًا على عقب.

في أجازه منتصف العام الدراسي سمعنا جميعًا بمرض السيد مختار، أحبه الجميع لذلك أصابنا جميعًا الزعر حين فوجئا بإصابته بالسرطان، زاره الكل في المسشفى: بعض الأساتذة، الكثير من الطلاب، حتى عمال البوفية والنظافة زاروه، وفي كل يوم كانت أميرة ووالدها هناك .. حتى توفي السيد مختار.

كنا نظن أن الرجل مرض فجأة، ولكننا علمنا من أميرة بعد ذلك أن الرجل كان مريضًا بالسرطان منذ عدة سنوات، وأنه كان يخفي الأمر عن خالد؛ حتى لا يزعجه نظرًا لارتباطه الشديد به، وذلك كانت أميرة ترجونا أن نعكف على زيارة خالد، ولا نتركه وحيدًا، أما هي ووالدها، فقد كانا يزورانه بشكل شبه يومي، وكان طبيعي أن يفقد خالد شغفه لكل شيء حتى عن مجيء الجامعة وحضور المحاضرات، وعن المذاكرة ومساعدة زملائه، وعن المكتبة التي يحبها، امتنع خالد عن كل شيء، وصار حبيسًا بين جدران منزله، حين زرته عدة مرات كان حزينًا بائسًا، كان مهوش الشعر طليق الذقن شارد النظرات، وكأنه لم يعد يعنيه من الدنيا شيءٌ على الإطلاق.

بدأت الزيارات لمنزل خالد تقل خاصةً مع شعور الجميع أنه غير مرحب بوجود أحد، كان دومًا صامتًا لا يردؤ فقط يحرك رأسه، ولم يعد يزوره سوى أنا وأميرة التي لم تقطع زيارتها له لا هي ولا والدها يومًا واحدًا.

كنت أواظب على زيارته مرة أسبوعين على الأقل، فقد كان خالد شديد الاكتئاب، لم يقل حزنه، ولم يحاول هو الخروج من تلك القوقعة، حاولت مرارًا أن أدعوه للخروج أو للسهر، ولكنه لم يستجب، مع بداية الشهر الثالث كانت امتحانات الفصل الدراسي الثاني على وشك البدء فانقطعت عن زيارته لفتره رغمًا عني، كانت تقريبًا شهر ونصف، لم أكن أقصد ولم أمل، ولكن العام الرابع كان حقًا صعبًا، خاصةً مع غياب خالد عن الصورة، لذا كان لا بُدَّ من التركيز ومحاولة جمع تلك الأجزاء المستعصية من المقررات.

أضاع امتحانات الفصل الثاني وباءت محاولات الجميع معه بالفشل، كنت أعلم ذلك لأنني أول من حاولت، لذلك توقعت عندما زرته مرة أخرى عقب نهاية الامتحانات أن أجده أسوأ حالًا، ولكن الغريب أنه كان منشرحًا سعيدًا جدًّا، يومها طلب مني البقاء معه حتى نتناول وجبة الغداء، ثم أخبرني عن عدة خمس خطابات وجدهم من والده، أحضرهم لي وسمح لي أن أقرءهم ، كانت مبادرة غريبة منه؛ نظرًا لأنني حتى تلك اللحظة كنت أظن أننا مجرد زملاءؤ وأن الواجب هو ما يدفعني للبقاء بجواره، ذلك بسبب أن خالد نفسه لم يمنحني أي بادرة لأشعر أنني صديق.

في خطابات السيد مختار الخمس كان هناك العديد من التفصيل الجديدي، كان يحكي له عن حالته المرضية، كان بالفعل مريضًا منذ فترة طويلة، في بداية الخمس خطابات كان خط الرجل منمقًا

جميلًا، كان يبدو أنن صحته جيدة، ثم في الخطاب الأخير كان الخط مائلًا مرتعشًا.

كان يشرح لخالد كل شيء عن حالته الصحية، ولكن أيضًا عن سبب هجر أمه، وهذا شيء خاصٌّ للغاية، أدهشني أن يشاركني فيه خالد، كانت والدته سيدة جميلة كما تعكس تلك الصورة الوحيده التي رأيتها معلقة في غرفة خالد، حسب خطابات السيد مختار كانت السيدة هدى معلمة جميلة تعرفت على السيد مختار أثناء عملهما في أحد الدول العربية، كانت السيدة هدى تعمل في تلك الدولة وحدها، وتعيش في سكن المعلمات مع عمة خالد، والتي كانت تعمل هناك، كذلك تقول الخطابات أن والد السيد مختار قد وافق على سفر العمة؛ لأن أخاها يعمل هناك، فكان النصيب أن تتعرف على السيدة هدى وتعرِّفها على أخيها مختار، حكت العمة عن جمال صديقتها هدى والتزامها في العمل ودقتها، وكان هناك قبول وتفاهم من اللحظة الأولى، وتم الزواج سريعًا رغم كون السيدة هدى في الأصل من إحدى محافظات الدلتا والسيد مختار إسكندري الأصل، إلا أن هذا لم يشكِّل عائقًا في البداية؛ نظرًا لكونهما يعيشان في الخارج أصلًا، تزوجا وكانا في عقدهما الرابع، وفي خلال عدة سنوات لم ينجبا سوى خالد، وقررت السيدة هدى أنها لا تريد مزيدًا من الأبناء رغم إلحاح السيد مختار عليها لإنجاب المزيد، ظلا على تلك الحالة لسنوات حتى وصل خالد لسن دخول المدرسة، هنا قال

السيد مختار أن عليهم العودة لمصر؛ حتى يدرس خالد في مدارسهم، وحتى يعرف عائلتيه الخاصة بوالده والخاصة بوالدته على حد سواء، رفضت السيده هدى في البداية بشدة، كانت عنيدة للغاية، ربما بسبب طريقة تنشأتها التي ذكرها السيد مختار في الخطابات ، فقد كان والدها يريد ابنًا ذكر، ولما يرزقه الله سوى بها أصبح يعاملها كصديقٍ له، فاكتسبت هي العند، التمسك برأيها، الصلابة، القوة، والأهم .. حب الذات، بالطبع أعجب كل ذلك والدها الذي أصبح يعتمد عليها في تجارته لقوة شخصيتها، وذكائها المتقد، وطبعاها الذكورية.

و حين أنهت دراستها الجامعية وقررت السفر، سافرت هكذا ببساطة، ولم يعترض أحد، كان والدها دائمًا يدعمها ويؤسدها في أي قرار تتخذه، حتى لو كان يجافي الصواب.

لذلك كان صدامًا مروعًا حينما تعارضت رغبتها مع رغبة والد خالد في العودة لمصر، خاصةً حين أصر هو، كانت المرة الأولى التى يعترض فيها أحدهم على قرارٍ لها، وكان ذلك هو الاختبار الأول لزواجهما، في النهاية أذعنت السيدة هدى لقراره على مضد، ولكنها عجزت أن تكون سعيدة أو راضية.

في الخطابات روى الوالد كثيرًا عن طباع الزوجة التي توحشت بمجرد عودتها لمصر، رغم أنهما وجدا عملًا فور عودتهما إلا أن ذلك

لم يرضيها؛ لأن القرار فُرِض عليها، استقرا معًا في الإسكندرية في تلك الشقة التي كانت خاصه بجد السيد مختار، كانت فيلا جميلة بناها الجد ليجمع فيها أبناءه، ولكنهم فضَّلوا الاستقلال، وباع كلا منهم شقته إلا شقة الجد التي بقيت مغلقة، أوصى بها الجد لمختار، كانت شقه أكثر من رائعة في أحد الأحياء الراقية، وأسسها الزوج بأفخر الأثاث كما ألحق خالد بمدرسةٍ خاصة.

ولكن الحياة لم تكن مستقرة بين هدى ومختار، كانا دومًا في صدام طفى على السطح مؤخرًا بعد عودتهما، رغم أن ذلك لم يكن يحدث حينما عملا معًا في الخليج، حاول مختار احتواء الخلافات بهدوء ورحابة صدر، إلا أن إجبارها على ترك العمل كان قد شكَّل لديها روحًا عدائية، لذا كانت تتصيد له الأخطاء .. ولخالد كذلك.

حين خرجت هدى عن السيطرة، وبدأت تصرخ في وجهه ووجه خالد وتضرب طفلها دون رحمة، تدخل الزوج ومنعها بالقوة، ولم يعجبها أن يعترض مختار على تربيتها لابنها، ومع تكرار الأمر قررت ترك خالد لوالده والعودة لأهلها قائلة بتعالٍ واضح :"أنا لا أستطيع تربيته، فلتربيه أنت بطريقتك كما تشاء".

باءت كل محاولات السيد مختار لرجوعه للإسكندرية بالفشل، كانت مصرة على الطلاق، ويؤيدها والدها كالعادة .. لذلك تم الطلاق، وبعدها عادت هدى للخليج مرة أخرى، ولم تنظر خلفها

لخالد، ربما كانت تسأل عنه في خطابات متباعدة، وتحضر له الهدايا كلما عادت في أجازة، ولكن لم تتخطى علاقتها به ذلك الحد أبدًا.

رفض السيد مختار الزواج؛ حتى لا يزعج ابنه خالد بزوجة أب رغم إلحاح الكل عليه، لاحظ السيد مختار أن سلوك السيدة هدى كان عدائيًا للغايةؤ خاصة في الفترة الأخيرة قبل الانفصال، إلا انه لم يلقِ لذلك بالًا، معلقًا ذلك على الضغوط وطبيعتها العنيدةظ

لكن بعد عدة سنوات انقطعت الخطابات لفترة .. وهنا سأل السيد مختار أهل هدى عنها وعلم أنها تعاني من مرضٍ ما، وبعد الكثير من الأسئلة اضطر والدها لإخبار مختار أن ابنته تعاني مرضًا عقليًا وراثيًا من عائلته، اعتذر الرجل كثيرًا عن إخفاء الأمر معللًا ذلك برغبة ابنته، قال أنه طلب منها إخباره قبل الزواج، ولكنها قالت بما أن المرض لم يظهر عليها حتى الآن فلن يظهر أبدًا، ولكن يبدو في النهاية أنها أخطأت التقدير، وأن المرض قد جاءها في عقدها الخامس.

على كل حال لم يلتفت لذلك السيد مختار، ولم يهتم سوى بخالد الذي أرعبه أن يرث الأمر عن والدته، لكنه كان سليمًا معافيًا، أما عن السيدة هدى قال إنه على كل حال كان قد انفصل عنها، ورغم ذلك طلب من والدها أن يتكفل بمصاريف علاجها، إلا أن الوالد رفض وأخبره بانه سوف يعالجها داخل المنزل، لم أكن اعلم أن والده خالد

متوفاه إلا من نهاية الخطاب الأخير ماتت بعد عدة سنوات دون تحسن في حالتها.

لم يكن خالد نفسه يعرف معظم تلك التفاصيل التي أخفاها السيد مختار جيدًا، كان صغيرًا حين رحلت والدته وتركته وقتها أخبره والده أنهما غير متفاهمين، ولم يرغب خالد أصلًا في الذهاب معها؛ نظرًا لمعاملتها القاسية معه، سمح لي خالد بالاضطلاع على جزء خاص من حياته، للمرة الأولى أشعر أنني قريبًا منه، وأننا أصدقاء، وليته لم يفعل!

كانت الخطابات تخبره كذلك بأموال ومستندات ملكية خاصة بالسيد مختار قد نقلها باسم خالد قبل وفاته ولكن، كان الخطاب الأخير يوحي بجزء لم يكتمل من القصة وحين سألت خالد هل هو الأخير، صمت قليلًا، وكأنه متردد ثم هز رأسة أن نعم، كنت أشعر أن هناك ما يخفيه، ولكن ماذا قد يخفي بعد كل ما اطلعني عليه بمحض إرادته.. لهذا لم أهتم وقلت أنه ربما فعلًا الأخير أو أن بالخطاب الأخير أشياء خاصة ربما مادية، وربما مشاعر تخص الوداع بين الأب وابنه لهذا لم أعاود طرح السؤال.

الغريب أن خالد كان بحال أفضل، كان منشرح الصدر مبتسمًا، وأخبرني أن في موت والده راحة له من الآلام التي أخفاها عليه طويلًا، انتظرت أن يتحدث كذلك عن والدته لكنه لم يفعل، صارت

زياراتي تتكرر أسبوعيًا وفي كل مره كنت ألح عليه ويرودني الأمل أن يوافق خالد على العودة للجماعة في العام القادم، لكنه كلما تحدثنا في الأمر تعمد أن يحيد عنه باختيار موضوع آخر، أو تحجج برغبته في النوم لأرحل.

لم ينقضي سوى عدة أسابيع حتى عادت حالته النفسية تنتكس مرة أخرى، عاد مجددا لتلك الحياة الكئيبة التي كان عليها قبل أن يجد تلك الخطابات، أخبرني انه يفتقد خطابات والده وأنه بحث كثيرًا في كل أرجاء المنزل عن غيرها ولم يجد.

في ذلك اليوم تحدثت مع أميرة لأقترح عليها أن نعرضه على طبيب للأمراض النفسية؛ ليساعده على تجاوز تلك الأزمة، بالطبع وافقت هي، وكما توقعنا تمامًا رفض خالد ولم يكن بإمكاننا إجباره، حاولنا التواصل مع أي شخص من عائلته، لكننا لم نجد شخصًا مهتمًا، كانت عمته قد توفيت قبل أخيها بعدة سنوات ولم تتزوج، حتى جده وجدته كانا قد توفي منذ عشر سنوات أيضًا، حاولنا إيجاد أي شخصٍ آخر، ولكن باقي أفراد عائلة خالد كانوا أقارب شديدي البعد؛ فأعمام والده أو من تبقى منهم على قيد الحياة كانوا مسنين للغاية، أما أبنائهم فلم تكن تربطهم أي صلة لا بخالد ولا حتى بابن عمهم الأكبر السيد مختار -رحمه الله- ، السيد مختار وخالد كانا وحيدين للغاية.

فكرت وأميرة أن نحاول التواصل مع أهل والدته، لكننا لم نكن نملك أي تفاصيل عنهم، لذلك لم يسفر بحثنا عن أي نتيجة، كانت أميرة في حالة ذعر؛ فمن ناحية كانت تخشى على خالد، ومن ناحية أخرى كان مصير خطبتهم يقلقها، فمهما طاوعها والدها ووالدتها فلن يطول الأمر حتى يفيض كيلهم.

حاولت التحدث مع خالد ودفعه للعودة لإتمام دراسته على الأقل، لكن خالد لم يكن يستجيب، بل كان يزداد انغلاقًا يومًا بعد يوم، بعد عدة أسابيع في يوم زيارتي المعتاد له وجدته قد تحسن مرة أخرى فجأة، قام بتشذيب شعره وذقنه، وارتدى ملابس نظيفه قام بكيها، بل وكان يعد طعامًا للمرة الأولى منذ وفاة والده، في الفترة الماضبة لم يكن يأكل سوى المعلبات؛ لذا فكونه يعد طعامًا مؤشر جيد

واعتقدت أنا أنه تغلب أخيرًا على أحزانه، ولم يدم اعتقادي طويلًا، فما هي إلا نصف الساعة، حتى أخرج خطابًا من جيبه وقال: " أرسل لي والدي خطابًا أخيرًا يا حسين".

تملَّكتني الدهشة للحظات، حتى استعدت السيطرة على نفسي وقلت: "خالد، لقد مات والدك".

نظر لي باستغراب، وقال: " نعم أعلم ذلك بالطبع، هل تحسبني جننت؟ ولكنه أرسل لي من العالم الآخر أنه يتواصل معي، ولم يفرِّقنا حتى الموت ".

كان ذلك يفوق الحد إذا فقد خالد عقله تمامًا بموت والده، ورغم هذا لم أحاول أن أجادله، فقد تغلب خوفي عليه على كل شعورٍ آخر، وجدتني أتناول الخطاب لأقرأه.

والمرعب في الأمر أن الخطاب بدا فعلًا من والده، ففي الخطاب كان يخبره أنه يشعر بالارتياح في مكانه، أنه يراه و يحبه، بل كان يطلب منه أن يفعل خالد ما يريده في دراسته سواء أراد أن يكمل دراسته أو لا، كان الخطاب غريبًا، لم يكن يحمل توقيع السيد مختار ولا أي توقيع، كما بدا أن الخط مختلف تمامًا عن خط السيد مختار في خطاباته الأولى، لذا فقد كان واضحًا أن شخصًا ما يتلاعب بخالد.

حاولت إخباره بذلك، ولكنه أخرج خطابات والده السابقة، ووضعها أمامي قائلًا: "لماذا لا ترى أنه الخط نفسه؟"

لم أفهم كيف لا يرى الاختلاف الواضح في الخط والحروف، حين خرجت من بيته اتصلت مباشرة بأميرة، وأخبرتها عن ما حدث، توقعت أن يكون الخطاب منها لمساعدة خالد ودفعه للتحسن، ولكنها اندهشت، وأقسمت أنها لم تفعل، كان قلقي يزداد في كل

خطوة على خالد الذي بدا أنه على حافة الانهيار، خاصة مع إصراره على رفض الذهاب لاستشارة طبيب.

أصبحت أزوره مرتين أسبوعيًا، وأميرة كذلك تزوره مع والدها مرتين، ثم اتفقت أنا وهي على حارس أحد العقارات المجاورة أن يذهب لخالد مرة كل أسبوع؛ لينظّف له المنزل، ويحضر له الطعام، ولم يبدِ خالد اعتراضًا على ذلك.

زيارة عم عمران الحارس لمنزل خالد أعادت الروح له، عاد المنزل نظيفًا، عاد خالد يأكل طعامًا مطهوًا، ويرتدي ثيابًا نظيفة حتى أن الأمل راودني أن يعود خالد للحياة والدراسة.

لم يكن يقلقني سوى قصة الخطابات التي تكررت كثيرًا بشكل يثير الرعب، في كل زيارة كنت أجد خطابًا جديدًا، وكان خالد سعيدًا بذلك، كان يقول لي والدي يطمئن على أخباري، والدي يعلم ماذا أكلت، والدي يعجبه نظافة عمران الحارس، حتى أنه في أحد المرات أبلغني السلام والشكر من والده لبقائي بجانبه، حتى أميرة كانت الخطابات تذكرها كثيرًا، والغريب أن والده في الخطابات كان يطلب منه تركها؛ لأنها لا تحبه بشكل كافٍ، حين سألته عن رأيه في ذلك قال بلا مبالاة: " هي بالفعل لا تحبني ولا تصدقني، هل تعلم أنها غاضبة مني لأني أصدق أمر تلك الخطابات، بل وتطالبني بالذهاب لطبيب نفسي؟"

يومها حاولت أن أكون لطيفًا في كلامي وقلت: " حسنًا، هي تحبك وترغب في الاطمئنان عليك، فلما لا؟"

نظر لي بغضب وقال : " هل ترونني مجنونًا، أم أنك أيضًا تكذِّب تلك الخطابات".

ولم يمهلني الرد، بل هب واقفًا، وقال لي: " عفوًا، هل يمكنك المغادرة؟ أريد النوم ".

تركته يومها، ولكنني لم أكف عن زيارته، ولم يكف هو عن التحدث عن تلك الخطابات التي صارت أكثر غرابةً ورعبًا، كانت تذكر تفاصيل غريبة في حياة خالد لم يخبرها لأحد، كنت واثقًا أنه بالطبع ليس والده، فلم يكن منطقيًا أن يرسل شخصٌ متوفي خطابًا للأحياء، ولكن تلك الخطابات كانت بالفعل مربكة جدًّا، كانت تبدو وكأنها منه بسبب تلك التفاصيل التي تورد فيها، مثل تفاصيل في الشقة، أماكن بعض الأشياء الضائعة، وجبة خالد المفضلة، في أحد المرات أخبرني خالد أن هناك قميصًا ضائعًا كان يفضله، ويحب أن يرتديه ولم يجده، بحث عنه في الشقة كلها ولم يجده، في الخطاب التالي ذكر له والده موقع القميص من المنزل، أخبره أن ذلك القميص موجود في شنطة تحت فراش خالد، وأنه ظن أن مقاسه لم يعد مناسبًا، لذلك وضعه في تلك الحقيبة.

بعض الخطابات كانت تحمل قصصًا من طفولة خالد لم يحياها مع خالد سوى والده نفسه، فكيف إذًا لشخص آخر أن يعرف ذلك؟ خاصةً أننا كنا نعلم ان والدته أيضا متوفاة، وحتى لو لم تكن فهي لم تحيا معهم تلك التفاصيل والأحداث، ولم يرويها خالد لأي شخص في حياته، فكيف عرفها أحدهم إن لم تكن تلك الخطابات من والده؟

بعد فترة بدأ خالد يخبرني أن التواصل لم يعد فقط بالخطابات، صار يرى والده، صار يأتي إليه كل يوم في منزله ليلًا، ويتحدث معه لساعات .. كان الأمر واضحًا، هناك هلاوس يعاني خالد منها، ولكن في الوقت ذاته كانت حالة خالد النفسية تتحسن، لذلك لم أكن اعلم ما هو الصواب هل على أن أواجهه بأن ما يحدث ليس حقيقيًا، أو أحضر الطبيب رغمًا عنه أو أنتظر ربما يتحسن.

حتى تلك اللحظة كنت متأكدًا أن هناك خطأ ما، وأن خالد أما جن أو هو ضحية لشخص يتلاعب بحزنه حتى جاء ذلك اليوم.

كنت أنا في زيارة خالد المعتادة حين خرج من الغرفة فجأة دون مقدمات، وبعد لحظات سمعت صوتًا في الخارج يتحدث إلى خالد، في البداية اعتقدت أنه عمران، أو ربما شخص دق الباب دون أن انتبه، ولكن فجأة ميزت أذني تلك النبرة، كان صوت السيد مختار، اقتربت من باب الغرفة والتصقت ، لم أميِّز من الحديث كله سوى

بضع كلمات مثل " أصدقائك، الطعام، أميرة" كلمات غير مترابطة، لم أفهم منها شيئًا، ولكني كنت متأكد أنه صوت السيد مختار، كنت أود أن أفتح باب الغرفة وأخرج لهم، لكني تجمدت في مكاني، وشعرت بكهرباء تسري في ظهري، وانقباض في مثانتي.

إذا لم تكن هلاوس كان خالد محقًا هو بالفعل والده، تأكدت حين عاد خالد للغرفة سعيدًا، وقال أن والده جاء و طلب منه أن يخبرني أنه سعيد بزيارتي لخالد، وأنني حقًا صديق صالح، كان يتحدث ببساطة وتقائية وكأنه أمر عادي، أما أنا.. فقد كنت مرتعبًا للغاية، رحلت يومها وانا اتلفَّت حولي من فرط رعبي، حتى أنني لم أستطع أن أنام في تلك الليلة، لم يكن الأمر يتطلب حدثًا آخر يرعبني، ولكنه حدث حين وصلتني رسالة على هاتفي من رقم خاص تقول: " شكرًا لوجودك بجوار ابني خالد".

وقف شعر جسدي كله، وشعرت أن أطرافي أصبحت رخوة، لم أستطع أن أقف أو أتحدث، تجمدت الدماء في عروقي، حاولت أعلم أن ذلك لم يكن مسموحًا بالطبع،

لم أعد أعلم ماذا يحدث بالضبط، هل هو شخص ما يتلاعب بنا جميعًا أم إنها روح بالفعل، لم تصلني وحدي تلك الرسالة الغامضة، وصلت رسالة لأميرة كذلك، ولكنها كانت تهديدًا، كان نصها "ابتعدي عن ابني أو تحمَّلي ما قد يحدث لكِ".

أخفت أميرة الأمر عن والديها؛ خوفًا من رد فعلهما، وأخبرتني أنها لا تزال تظن أن ما يحدث مع خالد هلاوس بفعل الاكتئاب، كانت تحب خالد حقًا، مما دفعها للذهاب بنفسها لاستشارته في حالة خطيبها، وكان بدوره يرى أن اكتئاب خالد قد وصل لمرحلة خطيرة بوجود تلك الهلاوس، لذلك حاولنا مجددًا مع خالد لعلنا نقنعه بزيارة الطبيب، ولكن بالطبع بلا فائدة.

كنت بدأت أصدق بوجود روحٍ عالقة تساعد خالد بعد ما حدث معي، لذلك حينما رفض الذهاب للطبيب لم يقلقني الأمر بنفس الدرجة التي أقلق بها أميرة، وبالطبع لي يمنعني ذلك عن التواصل مع خالد، ولكن بالنسبة لأميرة ووالدتها كان الأمر مختلفًا، خاصةً حين علمت بأمر الرسائل، كانت خائفة على ابنتها بشدة، وكان ذلك منطقيًا، حاوت أميرة مقاومة والدتها، كانت ترفض التخلي عنه وهو بتلك الحالة، لكن والدتها أصابها الذعر، وتحوَّل الأمر إلى صراخ وبكاء، بل وهددت إن لم تفسخ اميرة تلك الخطبة لن تبقى هي في المنزل، فأما الخطبة وأما بقائها.

كانت حالة خالد غير مشجعة لوالد أميرة ليدافع عنه، كان الرجل يحبه، ولكن خالد كانت حالته تزداد سوءًا، وكان يرفض العلاج، لذلك أُجبِرت على ترك خالد.

لم يكن الوقت مناسبًا لحالة خالد، شكَّل ابتعاد أميرة عنه صدمة قوية لم يتحملها خالد، فارتدت له حالة الاكتئاب أسوأ مما كانت، بالطبع لم يكن لأميرة حيلة فيما يحدث، كما أن حالتها لم تختلف كثيرًا عن حالة خالد من انطواء وحزن، ورغم امتناعها عن زيارته بدون والدها، إلا أنها لم تمتنع عن الاتصال به، إلا أن ذلك لم يهون على خالد، وبعد فترة امتنع عن الرد على اتصالاتها، ثم بدأ يبتعد عني أنا أيضًا، ويمعني من دخول منزله، لم يعد يرغب حتى في زياراتي الأسبوعية، كان يصرخ كلما رآني، ويطلب مني أن أتركه أنا أيضًا، كان يقول أنه لا يريدني، ولكنني أقسمت له مرارًا أنني لن أفعل.

لم أكن أعلم سبب تحمُّلى لكل ما يحدث، هل يدفعني حبي لخالد ووالده، أم أن الدافع هو الواجب والقلق على زميل دراسة طالما ساعدنا وحان وقت رد الجميل، ربما مزيج بين هذا وذاك خاصةً أنه كان وحيدًا جدًّا، ولم يكن له سواي بعد ابتعاد أميرة عنه.

بالتدريج بدأ خالد يسمح لي بدخول المنزل مرة أخرى، لم يكن يتحدث في البداية، ولكن مع تعدد زياراتي، والتي صارت أربعة أيام كل أسبوع، بدأنا نتبادل الحديث مرة أخرى، أخبرني أنه لازال يتواصل مع والده، ولم يعد فقط والده، بل والدته وجده وجدته وحتى عمته، كان مقتنعًا أن له كرامات روحانية، ورغم حالة الرعب التي سيطرت عليَّ إلا أنني بصراحة كان بداخلي شيء يصدقه بعد أن سمعت صوت والده.

بعد فترة بسيطة أصبح خالد يختفي فجأة، أذهب لزيارته فلا أجده، وبعد عدة أيام يظهر ويرفض إخباري أين كان، بعد فترة بسيطة أخبرني أنه تعرَّف على فتاة جديدة، كانت سعيدًا أنه وجد فتاة، ولكن أدهشني التوقيت، كيف وجد فتاة في تلك الظروف وبعد تلك الفترة البسيطة من فراق أميرة.

أخبرني أمرًا أشد غرابةً، قال أن والده ووالدته يرحبان بها، وكان ذلك غريبًا للغاية، من هي تلك الفتاة وأين هي، وهل تعرف ما يحدث معه أم لا، لم أسأله بالطبع؛ خوفًا من رده، خاصةً أنه في الفترة الأخيرة لم يكن يرحب بوجودي،

لذلك لم يكن بيدي أي حيلة، و ماذا كان يمكنني أن أفعل، حاولت فقط أن أظل بالقرب منه حتى لفظني هو.

في في إحدى زياراتي له وجدته قد قام بشراء مجموعة من الكتب، ابتسمت واعتقدت أنه أخيرًا عاد لشغفه مرة أخرى، كان يبدو أنه كان منزعجًا من وجودي، ولكنه لم يطلب مني الرحيل، كنت أعرف أنه يريدني أن أرحل، ولكن قلقي الدائم عليه كان يدفعني لتجاوز ما يفعله ومحاولة البقاء لأطول فترة معتمدًا على الكرم الحاتمي لأهل ذلك المنزل، لما أطلت البقاء سألني ممتعضًا ماذا أشرب، وطلبت منه كوبًا من الشاي،

حين ذهب لإعداده اقتربت من الكتب لأراها، شيء ما في غلافها لم يكن مريحًا، وكما توقعت كانت كتب في السحر.

حينما خرج من الطبخ انتفض لرؤية الكتاب بين يدي، وضع الصينية بعصبية، واتجه إليَّ وسحب الكتاب من يدي بعصبية، قلت بنبرةٍ مرتفعة حملت الكثير من الغضب والقلق: "ماذا تفعل يا خالد لماذا ؟"

رد قائلًا بتوتر ملحوظ: " لقد أوجدتني صرت أملك بعض الكرامات .. فقلت لما لا أنميهآ"

قلت له بالنبرة ذاتها :" هذا حرام .. ماذا سوف تفعل بالسحر ؟ السحر شرك بالله".

على صوته وهو يقول بعصبية واضحة: " وما شأنك أنتَ؟ أخرج الآن، ولا تعد هنا مجددًا".

رغم صدمتي في كلامه وكرامتي الجريحة لكني قررت أنني لن أنقطع عن زيارته أبدًا حتى وإن طلب هو.

ولكن تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن، اختفى خالد تمامًا، قلبت الدنيا رأسًا على عقب بلا فائدة، صرت أذهب لمنزله يوميًا بلا فائدة، مر أسبوع واثنان، وفي الأسبوع الثالث قررت سؤال الجيران، لكنهم جميعًا أجمعوا أن خالد لا يخرج أو يدخل، كذلك لم يفتح نافذةً أو

بابًا واحدًا طوال تلك الفترة، حتى عمران كان خالد قد أعطاه مبلغًا مجزيًا قبل أن يختفي، وأخبره ألَّا يأتي مرة أخرى إلا حين يطلبه.

لم يظهر خالد، وجاءت امتحانات الفصل الدراسي الأخير في الجامعة، وانشغلت أنا رغمًا عني، حاولت المرور بالمنزل ولكنه لم يظهر، لكن كانت هناك مؤشرات تعني أنه موجود .. يأتي للمنزل على الأقل، الخطابات أمام الباب والفواتير كانت تختفي، مما يعني أنه فتح باب، مما أراح قلبي نسبيًا، وساعدني على إنهاء مشروع التخرج.

بعد انتهاء الامتحانات زرت خالد مرة أخرى، و أخيرًا فتح الباب، كنت سعيدًا منشرحًا بعودته مرة أخرى، إلا أنه كان متحفِّظًا جدًّا في حديثه، حتى انه أدخلني لغرفة الصالون لأول مرة منذ بداية معرفتنا، كانت الشقة بها فوضى غريبة، كانت القذارة تسيطر على المكان، كذلك رائحة الشقة كانت بشعة للغاية، خالد نفسه بدا غريب الشكل، كانت الهالات السوداء قد حفرت مكانها تحت عينيه، كان شعره أشعث، ولحيته نامية، ونظراته زائغة،

لم أطيل الجلوس على كل حال، فقد كان خالد لا يرغب في وجودي، وكانت معاملته جافة، حين خرجت قابلني عمران، جرى عمران ناحيتي وهو يقول:" الحمد لله أنني رأيتك يا أستاذ حسين، كنت أنتظر قدومك، هناك شيءٌ هامٌ عليَّ إخبارك به".

التقط نفسه وأكمل قائلًا: " الباشمهندس خالد لم يغادر الشقة أصلًا طوال تلك الفترة ".

سألته : " كيف عرفت ؟"

قال وهو يخفض صوته: " في الأيام الماضية حين قلت زياراتك بدأت ضوضاء غريبة تخرج من منزله من المنزل ليلًا، اشتكى الجيران، ودقوا الباب مرارًا لكنه لم يفتح الباب، ولم يستجب، حاولت تهدئتهم، وأخبرتهم أنه يمر بوقتٍ عصيب، ويجب تحمُّله، وصمتوا هم على مضد، كنت أدق بابه يوميًا، وحين فتح أخيرًا وأدخلني، كان المنزل قذرًا للغاية، حاولت أن أنظِّف المنزل، لكنه رفض ونهرني بشدةٍ، وقال فقط اغسل الثياب، وأعد بعض الطعام وارحل من هنا، بل إنه لم يوافق أن أدخل حتى لنشر الغسيل، قال لي: "اتركه، وأنا سوف أنشره".

قاطعته سائلًا: " هل كانت رائحة الشقة سيئة؟"

قال ونظراته زائغة:" نعم، كانت الرائحة بشعة، لذلك حينما دخل لينام في غرفته وتركني أعد الطعام، فكرت أن أقوم بتنظيف غرفة السيد مختار على الأقل، كان الباشمهندس يحبها ويحافظ عليها، فاعتقدت أنها ستكون نظيفة، لن تأخذ الكثير، فقط يمكنني كنسها وتنظيف الأسقف، ربما يُشعِره ذلك ببعض التحسُّن، حين دخلت الغرفة صُدِمت .. كانت الغرفة غريبة كئيبة، بها رسوبمات على

الأرض و الجدران، نجمة غريبة تشبه نجمة الصهاينة، وطائر غراب مذبوح، وشموع محترقة في أنحاء الغرفة، أعرف تلك الطقوس جيدًا .. أنه سحر، الباشمهندس كان يسلّم نفسه للشياطين".

مادت الأرض بي، تأخرت أنا لهذا الحد، لم أرَ عمران في المرات السابقة؛ لأنها كانت زيارات سريعة، أدق فيها بابَ خالد وحين لا يصلني جوابٌ أرحل، تأخرت أنا على خالد، وكانت أميرة محقة، كان يجب إيداعه مصحة عقلية.

خرجت من البيت مسرعًا، واتصلت بأميرة رغم تأخر الوقت، أجابتني ناعسة فزعة، لم نكن أصدقاء، ولم يكن مألوف بالطبع أن أتحدث لها أصلًا، ما بالك بمكالمة بعد منتصف الليل ..حكيت لها القصة كاملة، طار النوم من عينانا في تلك الليلة، وبقينا لساعة كاملة نتحدث حول ما يجب فعله، في النهاية أغلقت الخط، وطلبت مني مهلة حتى الصباح لتستشير والدها.

كان والدها محبًا لخالد، يحترمه ويحترم والده، لهذا لم يتأخر اتصال الرجل الذي أخبرني أنه لم يعد هناك بُدًّا من تسليم خالد لمصحة عقلية، كانت المشكلة أن إيداعه يجب أن يكون عن طريق أحد أقاربه له، ذهبنا معًا لواحدٍ من أعمام والده، كان مسنًا، ولكنه كان بعقل سليم واعٍ، اتصل بابنه وأمره بالذهاب معنا للمصحة العقلية،

أصر والد أميرة على دفع تكاليف علاج خالد قائلًا: " الفتى ترك شبكة بالآلاف لابنتي، وحان وقت سداد دينه".

لم تتطلب الإجراءات وقتًا طويلًا، أرسلت المصحة عربة خاصة ليلًا لنقل خالد، صعدنا جميعًا وقام الرجال بتقييده، وحقنه الطبيب بمهدئ قوي ليسيطر عليه، أنزله الممرضون للعربة، ولكن الطبيب وقف معنا في منتصف الصالة معلقًا على رائحة المنزل، كانت الرائحة بالفعل قد ازدادت سوءًا عن المرة الأمس.

قال الطبيب : " تلك الرائحة لا تعني خيرًا".

ثم نظر لنا بقلق قائلًا: " يجب تفتيش غرف المنزل؛ هناك شيء ميت".

تذكرت قصة الغراب، وقلت له: " أخبرني عمران عن غراب مذبوح في غرفة السيد مختار".

هز الطبيب رأسة بعدم اقتناع قائلًا:" لكن تلك الرائحة قوية للغاية، لا يمكن أن يكون طائر واحد.. ربما دستة من الطيور".

أقلقني حديثه، فقلت: " هيا نتاكد إذن".

كان ابن عم والده معنا، وكنت أتمنى لو صعد عمران ليخبرهم بما قال لي، ولينظف تلك الفوضى، تحركنا جميعًا في أرجاء المنزل حتى وصلنا لغرفة معزولة، كنت أعتقد أنها غرفة السيد مختار، دخل

الطبيب أولًا، حين فتح باب الغرفة هبت رائحة قوية جدًّا من الداخل، شهق الطبيب، فاعتقدت أن الرائحة فاجئته،. ولكن حين تبعته بالدخول أدركت السبب.

كانت الغرفة كما وصف عمران .. النجمة على الأرض، الرموز على الجدران .. كل شيء كما وصف عدا شيء واحد، في منتصف الغرفة كانت هناك جثة بدأت في التحلل، جثة رجل،

أبلغنا البوليس الذي جاء سريعًا، ليلة طويلة من التحقيقات، وأيام طوال بعدها في التحقيق معي، استدعت الشرطة الجميع، وحققت مع الكل عدا عمران، في البداية كنت أتعجَّب لماذا لم يأتِ، ولماذا لم يخبرني بأمر تلك الجثة، هل قتل خالد ذلك الرجل بعد أن دخل عمران الغرفة،

لم يطل تعجُّبي يا رفاق، فبعد تقرير الطبيب الشرعي اتضح أنها جثة عمران، كانت تلك الجثة مقتولة قبل أسبوعٍ من اكتشافها، في حين أن عمران تحدث معي قبل اكتشاف الجريمة بيومين فقط، حتى الآن أنا لا أدرك كيف حدث هذا.

خالد ورث مرض عائلة والدته، كان مريضًا بالفصام، أخفى الخطاب الأخير عني والذي وجدته الشرطة، كان السيد مختار قد أدرك حالته مبكرًا، وبعد عرضه على الأطباء كان يطحن له دواءه في الطعام،

أخبره بذلك في الخطاب، ولكن خالد أخفاه، وامتنع عن دواءه، مما زاد الحالة سوءًا.

الفصل الأخير من تلك القصة حضرتموه أنتم معي، حين انتحر داخل تلك المصحة، وكنتم معي يوم أخرجنا تصريحًا وورينا جثمانه التراب..

صمت الجميع واجمين، سيطر عليهم الحزن ذاته الذي شعروا به يوم دفن خالد، كان صديقًا لحسين لم يكن صديق لأي منهم، ولم يتعرَّفوا عليه في حياته، الا أن وفاة شابٍ يماثلهم عمرًا بتلك الطريقة كان يعد حادثًا مأساويًا، كانت المرة الأولى التي يرون فيها حسين منهارًا بتلك الطريقة، حسين شخص عملي لا يميل لحسابات المشاعر والحب، كان ذلك ناتجًا لظروف تربيته القاسية.

تخلَّت أمه عنه صغيرًا ورحلت تاركة إياه لوالده، كان والده رجلًا عسكريًا صارمًا أذاقه العذاب بطبعه الصارم، فتحوَّل حسين لشخص ينحي قلبه جانبًا، كان يعشق التهريج والضحك، ولكنه كثير ما جرح المحيطين به بلسانه اللاذع، لم يحبه أو يتحمَّله غيرهم، رغم طبعه المزعج أحيانًا، إلا أنهم لمسوا جوهرة الطيب الأصيل، وكان ما حدث مع خالد خير دليل على صدق حدثهم نحوه.

لمعت عينا حسين بالدموع، رغم الأضواء الخافتة التي تعمَّد زقزق تهدئتها، والبرد اللاذع الذي كثيرًا ما يُدمِع العيون، إلا أن دموع حسين كانت دموع حزن واضحة، كاد وائل أن يتحدث مُغيِّرًا مجرى الحديث تمامًا حين صرخ بهلول قائلًا:" نجينا من نفسنا يارب".

انتفض أحمد بشدة وهو يقول بعصبية: " ذلك المجنون يفزعني كلما مر، كما أن كلماته تلك ترهبني".

ابتسم إسماعيل وهو يقول برقة قلبة المعتادة: " حرام عليك ، الرجل يسير بلا هدى في الشوارع ليلًا نهارًا بأثمال بالية رغم برودة الجو".

استدار حسين ناظرًا له، وقال مبتلعًا غصة تضايقه وتدفع العبرات لعينيه: " ياترى أين ينام الرجل؟"

فكروا جميعًا لثوانٍ، ثم قال إسلام : " ربما له منزل وعائلة".

ابتسم وائل بحسرةٍ قائلًا: " لا، ليس لديه أحد .. ألا تعرفون قصته؟"

هزوا جميعًا رؤسهم أن لا، في حين سأل إسماعيل قائلًا: " أتعرف له قصةً؟"

هز وائل رأسه بنعم، وقال : " الجميع يعرف قصة سليمان، ولكن زقزق خيرٌ مَن يحكيها".

كان زقزق مُمددًا على مرتبته مغمض العينين، حتى ظنوا جميعًا أنه نام ، ولكنه بمجرد أن سمع اسمه انتفض جالسًا وهو يقول: " أخيرًا شاركتموني الحديث".

ضحكوا جميعًا على كلماته ، ثم صمتوا مفسحين له المجال ليحكي قصة بهلول .. سليمان.

كنز سليمان

هل تظنون يا بهوات أن بهلول هذا مجذوب منذ الصغر؟ بالطبع لا لم يكن دائمًا هكذا، لم يكن المجذوب الذي يهيم في شوارع المدينة بلا هدف، يهمس بكلمات غير مفهومة، ويبتسم ابتسامة غريبة، وكأنه يرى ما لا نراه، بل كان رجلًا ولا كل الرجال طول بعرض، شهامته وجدعنته كانت مضرب للأمثال، صنايعي شاطر وميكانيكي بارع أبًّا عن جد، يعرفه القاصي والداني، كان موهوبًا في عمله، تكتظ ورشته الصغيرة، والتي كانت تحت البيت القديم بالزبائن يوميًا، كانت تلك الورشة شاهدًا على مهارته، وكانت معروفة في الحي، كله حتى أن المكان هنا كان يُوصَف بها، ورشة سليمان المصري، كما عُرِفت سابقًا باسم جده، الذي سماه والده على اسمه.

هل ترون ذلك البيت المهدوم هناك في مواجهة القهوة؟ كان هو منزله، وكانت ورشته تحته، كان منزلًا جميلًا شاهدًا على عصورٍ انتهت ولم يبقَ منها سوى معمارها الأنيق، كان بيتًا قديمًا ذا صميم إيطالي رائع، كان مميزًا ناطقًا بالجمال والفن عكس باقي المنازل المحيطة به، رغم لون حوائطه الرمادي الداكن، ألا أن تصميمه وتلك التماثيل في إفريز المبنى ومدخله وعلى جوانب نوافذه العالية كانت بمثابة متحف، كان ذا سقفٍ مرتفع، وسلم رخامي عتيق، كان له طابع خاص، أحضر الجد مهندسًا معماريًا إيطالي الجنسية

خصيصًا لبنائه، يقال أنه كان واحدًا من زبائنه الدائمين، وقد صمم له المنزل بمزاجٍ رائق؛ لأن الجد كان الوحيد القادر على إصلاح عربته التي يعشقها عشقًا جمًّا، كان واسعًا، يحمل بين طياته الكثير من الذكريات والتاريخ الذي وقف شامخًا شاهدًا على كثير من أحداثه، عاش فيه الجد سليمان وزوجته وابنه كامل، تزوج فيه كامل، وأنجب سليمان الصغير، والآن يعيش فيه سليمان مع والدته بعد وفاة والده وجده، وقد كان زوجًا وأبًّا معروفًا بطيبة قلبه واهتمامه بأسرته، كان مضربًا للأمثال بخلقه ومهارته.

رزقه الله سبحانه وتعالى بزوجةٍ صالحة، كانت – كما يقولون – جميلة وسيدة منزل ذات طراز رائع ، اعتاد الناس على مشاهدتها يوميًا مع زوجها في الخامسة داخل الورشة تشاركه وجبة الغداء، مع ذلك لم تنشغل عن ولديها ولا مراعاة حماتها، كان ولداها شديدي النظافة والأدب، كما أنهم كانوا متفوقين دراسيًا، يتنبأ الجميع لكليهما بمستقبل مشرق، كان سليمان يقول أن والديه: مصطفى وكريم سيدخلان الهندسة قسم الميكانيكا عندما يكبران، وأنهم سيجعلان من تلك الورشة الصغيرة شركة صيانة ذات فروع في كل أنحاء مصر،

ولكن يبدو أن حقًا الحسد يمكنه أن يبدِّل حال الإنسان، كان الرجل ملتزمًا لا ينظر لامرأة أبدًا حتى ولو حاولت هي معه، حتى قابل ولاء، تغيَّرت الأمور بدخول تلك الحرباء، كانت فاتنة الجمال، تملك من

الجاذبية ما جعل قلبه يخفق من النظرة الأولى، ولكنه مع ذلك قاومها وصدها لشهور طويلة، لكنه رجل وأمامه امرأة صارخة الجمال تحاول جذبه إليها لشهور دون كلل، فسقط في النهاية وتزوجها بسرعة، جهَّز لها شقة في الدور الثاني، كانت مغلقة وفرشها لها بأحدث الأثاث وأجمله، بالطبع كان الوضع قاسيًا على زوجته الأولى، مرضت ولزمت الفراش لفترةٍ، حتى حين استعادت جزءًا من صحتها، وعادت لممارسة مهام بيتها، كانت تفعل بلا حماس أو همة، كان ذلك واضحًا من حال ابنيها اللذين بدوا مُهمَّلين مقارنةً بحالهم الأول، لم يعد أحدٌ يراها في الورشة، حتى مَن رأوها من النساء داخل منزلها، مصمصن الشفايف وقلن أنها نحلت وزبلت، وباتت صامتة حزينة.

كانت ولاء جميلة حقًا، ولكن خلف هذا الجمال الساحر كانت تُخبئ طمعًا وجشعًا وقسوة غير طبيعيين، لم تكن ترضى بالقليل، وكانت تلاحقه بطلبات مادية لا تنتهي، تطلب الحلي الذهبية والخروج أسبوعيًا في أماكن مكلفة، ولم تكتفِ بثلاثة أيام كما أتفق معها قبل الزواج، بل أصبحت تطالب ببقائه معها طوال الأسبوع، وأهمل هو عمله، حتى بدأت الزبائن تتسرَّب من بين يديه تدريجيًا، حتى كادت الورشة تخلو من زبائنها.

يقولون أن النساء أعتاب، وكانت ولاء عتبة فقر ونحس على سليمان وكل عائلته، لم تكتفِ بكل ما قدمه لها ولا بوالدته التي غضبت

عليه، ولا بزوجته التي انهارت تمامًا، وصارت كالأشباح، بل تمادت وصارت تردد "أريد حياةً أفضل، أريد أن أعيش في رفاهية!"

دائمًا ما كانت تقولها بصوتٍ عالٍ، بل دائمًا كان صوتها عاليًا ومسموعًا حتى للمارة في الشارع، ولكن لسبب غير مفهوم، ظل سليمان مفتونًا بها رغم كل تلك الإشارات، كا تدفع سليمان أكثر فأكثر لتحقيق طموحاتها، وكان هو يسير خلفها كالمسحور، بالطبع لم تعد الورشة الصغيرة تكفي طلباتها، خاصةً بعد أن قل زبائنها، لهذا بدأت تلح عليه أن يبيع البيت بالكامل، كان المنزل بتصميمه هذا وموقعه هنا يساوي ثروة، صارت تلح عليه وتحضر له المشترين، أخبرته أن بجزء من تلك الثروة يمكنهم شراء قصر على الأطراف، وبباقي المبلغ يمكن شراء معرض كبير

للسيارات، يدر ربحًا كبيرًا عوضًا عن تلك الورشة المفلسة، أرادت منه أن يبيع البيت الذي بناه جده، وعاشت فيه عائلته لسنوات قاربت المائة عام فقط لتحقيق أطماعها، والغريب أنه وافق.

"البيت دا مش للبيع!"

كانت كلمات والدته واضحه صارمة، لن تبيع وبنصيبها في المنزل سوف تقف أمامه، كان بالطبع نصيبها ضئيلًا مقارنة بنصيبه هو، ولم يكن ذلك ليمنعه إلا أنه لم يكن يرغب في إغضابها، كان يريد

للأمر أن يكون قائمًا على اتفاقهما، لكن الأم أصرت على الرفض، كان لديها سرٌّ حجبته عنه لسنوات، وأمام إصراره اضطرت أخيرًا لمشاركته إياه قائلة بنبرةٍ تحمل غضبًا وحسرة في الوقت ذاته : "دا مش بيت عادي، البيت دا مربوط بحاجات أنت متعرفهاش، أبوك الله يرحمه قال لي متكلمش عن الموضوع دا وأنا وعدته، لكن دلوقت لازم تعرف الحقيقة طالما مصمم على اللي في دماغك".

كانت القصة تعود لأيام جده، الذي قرر بناء هذا البيت الكبير حينما جمع مبلغًا كبيرًا من المال من ورشته الأولى، حينها اشترى تلك الأرض ببيت قديم متهالك فوقها من يهودي، قرر الهجرة لفلسطين، حينها وافق اليهودي بسعر بخس؛ لأنه كان يتعجَّل الرحيل من مصر بعدما أعلن مرارًا أمام الناس أن فلسطين أرض الميعاد، وأن بني اسرائيل أولى بها، وقتها قاطعه الناس، وبعد أن كان محله لبيع وإصلاح الساعات ممتلئ بزبائنه، صار خاليَ الوفاض، تحمَّل وقتها الرجل لفترة وهو يراهن على طبع الناس بالنسيان، إلا أن ذلك لم يحدث، خاصةً مع وصول الأخبار من فلسطين بانتفاضات عدة وثورة مشتعلة، حينها فقط باع الرجل البيت بالأرض لجده بثمن زهيد واختفى، كان البيت متهالك، فقرر الجد هدمه وبناء بيت أفضل، لذلك ظل المنزل والمحل مهجورين لسنوات، إلى أن جمع الجد المبلغ وجاء مع مهندس إيطالي صديق،

وقام بمعاينة المكان، وما هي إلا أيام حتى بدأ العمل لهدم المنزل تمهيدًا لإعادة بنائه.

كان الجد حينها شابًا في بداية العقد الرابع، ولا يملك من الأبناء سوى واحدٍ، وهو كامل الذي كان طفلًا وقتئذ، كان الرجل متحمسًا، وأحضر فريقًا من العمال، وبالفعل قام العمال بهدم المنزل، قالوا حينها أن الهدم استغرق وقتًا رغم كون البيت متهالك أصلًا، وممتلىء بالشروخ، إلا أن الجدران كانت وكأنها ترفض السقوط، تعطَّلت بعض الآلات لعدة مرات، كما سقط أكثر من عامل وكُسِرت ساق اثنين منهم.

كان الوضع غريبًا حتى أن الناس أشاعت أن ذلك اليهودي الراحل قد ترك عملًا أو سحرًا في المكان، ولكن الجد لم يقبل تلك النظرية، كان دائمًا يقول: " ما قدم عن قدم إلا بأمر الله"

،انهدم البيت أخيرًا، وجمعوا أنقاضه تمهيدًا لبناء المنزل الجديد، ثم بدأ العمال في الحفر، حينها وجدوا شيئًا غير متوقع، لم يعلن الجد عن شيء بشكل صريح، ولكن الكلام خرج من بين العمال على كل حال، وجدوا تحت الأرض بقايا هياكل عظمية مدفونة، وقتها كانت حادثة ريا وسكينة ما زالت حديثة، تتردد في الإسكندرية كلها، كان الطب الشرعي حديثًا وموضع اهتمام، لذلك احتار الرجل، لو أبلغ عن ما وجد لتحول المكان لمسرح جريمة وتحقيقات، ولدخل هو في سين وجيم، والأهم أن المتوقع ألَّا يوافقوا له ببناء المنزل في وقت

قريب، وربما يُغلَق المكان لفترة وليمنعوه هو نفسه من الاقتراب منه، لذلك اقترح رئيس العمال عليه أن يأتي في الليل ويأخذ تلك الجثامين ويدفنها في أي مقبرة بشكلٍ لائق، بل أنه سهَّل له الأمر عن طريق ابن خالته التربي، والذي لن يطلب نظير تلك العملية إلا حفنة من الجنيهات، تردد الجد للحظات إلا أنه وافق في النهاية، وبالفعل جاء هو ورئيس العمال ليلًا، وقاموا بانتشال تلك الجثث ونقلها للمقابر، وتم دفنها في مقبرة مغلقة منذ عقود مقابل حفنة من الجنيهات.

لا أحد يعلم من أين جاءت تلك الجثث، ولماذا بقيت تحت منزل ذلك اليهودي الراحل، هل كانت تلك الجثث تشير إلى جريمة قتل قديمة، أم أن المكان اُستُخدِم كمدافن مثلًا، لا أحد يعلم ولكن منذ ذلك اليوم بدأ جحيم العمال الحقيقي، بدأت أصوات هامسة تتردد في أذانهم، بل وأحيانًا صرخات غامضة، وخلال الأيام التي تلت، بدأت الأحداث الغريبة تتفاقم، كانت الأدوات والعدد تتحرك من تلقاء نفسها، تختفي فجأة وتظهر في أماكن غريبة لم يضعها أحد فيها، وأحيانًا يجد العمال أنفسهم في حالة ارتباك وتشوُّش غير مفهوم، وكأن قوة غامضة تسيطر عليهم، أحيانًا حينما يدخل الليل كانت الأضواء تنطفئ فجأة، يسمعون تهديدات بأسمائهم، بل أن الأمر تجاوز ذلك حين شعر رئيس العمال بيدٍ تسحبه من قدمه صوب حفرة حفروها أرضًا لرمي الأثاث، صرخ الجل وأمسك بيده

عددًا من العمال إلا أنه كان يُسحَب للأسفل بقوة، لم تتركه تلك اليد إلا بعد دقائق، وتركت حول ساقه علامةً زرقاء لأصابع خمسة.

هنا بدأ الجد يفقد أعصابه، واستمع أخيرًا لنصائح زوجته، واستدعى شيخًا دله عليه بعض الأصدقاء، كان الرجل ذا شهرة في ذلك الوقت، كمحاولة أخيرة لتهدئة الأجواء.

عندما أتى الشيخ، وقف في منتصف البيت، وقال: "الأرواح غاضبة، ولن تهدأ حتى تُعاد إلى مكانها الأصلي". وأشار لهم على مكان في الأرض، كان المكان هو ذاته مكان الجثث قبل إخراجها، لم يخبر أحدهم الشيخ بأي شيء عن الجثث أو دفنها، ولكنه وحده علم وأخبرهم الحل في بساطة مضيفًا بلهجةٍ مرعبة:" الحل الوحيد هو إعادة دفنهم هنا داخل البيت، ثم نعاهدهم على الابتعاد عنهم".

كانت الأساسات قد وُضِعت، وقبل الشروع في بناء الأدوار طلب الجد بناء حجرة صغيرة في الدور الأرضي ونقل الجثامين بها، هدأت الأمور خاصةً بعد أن جاء الشيخ مرة أخرى ببعض البخور والطلاسم التي رسمها على الأرض، كانت جلسة لتحضير الأرواح اهتزت فيها وتراقصت أضواء الشموع، وسمع فيها الجد الكثير من الهمسات الغاضبة، إلا أنه في النهاية توصَّل الشيخ للعهد المطلوب مع الأرواح، لكنه حذَّرهم: "هذا العهد لا يُكسَر، إذا حاول أحد هدم هذا البيت أو نبش الأسرار، ستعود الأرواح وتظهر غاضبة، ولن يتحمل أحد غضبها".

رغم تحذيرات والدته، ورغم تلك الحكاية المرعبة، إلا أن سليمان أصرَّ على بيع البيت، كان يرى أنها خرافات، و لم يكن يؤمن بالخرافات أو قصص الجن والأرواح، لذلك شرع في عرض المنزل للبيع وتجهيز أوراقه، ولم يمضِ وقت طويل حتى جاء مشترٍ بصفقة لا تُعوَض، يشتري نصف البيت ويقومان بهدمه وبناء عمارة كبيرة حديثة كتلك التي انتشرت في تسعينات القرن الماضي، ولسليمان نصف عدد الشقق، وكذلك المحلات أسفل البناية، أي يمكنه أن يفتح معرض السيارات كما أراد وفي موقع الورشة نفسه بالإضافة لعدد لا بأس به من الشقق، وما هي إلا أيام حتى بدأ هدم البيت، متجاهلًا سليمان بذلك جميع التحذيرات.

منذ اللحظة التي دخلت فيها المعدات لبدء الهدم، كان الأمر وكأن البيت نفسه يقاوم، كانت المعدات تتعطل دون سبب، العمال يتساقطون مرضى بشكل غريب، بل أنهم كانوا يقعون من أعلى المبنى، وكأن شيئًا غير مرئي يدفعهم، الأضواء كانت تنطفئ فجأة، والحرائق تشتعل في أجزاء متفرقة من المكان، وأصوات غريبة كانت تأتي من تحت الأرض، صرخات وآهات تصم الأذان، لم يستطع أحد تفسيرها، ورغم وضوح كل ما يحدث إلا أن سليمان أصرَّ على التجاهل وإكمال العمل، كان العمال يفرون كل عدة أيام ليأتي بفريق غيرهم لإكمال الهدم، إلى أن حدث في إحدى الليالي، بينما كان سليمان يراقب سير الهدم، وحين سقطت إحدى الحوائط أخيرًا، أن

سمع صوتًا قادمًا من أعماق الأرض، الصوت لم يكن مجرد صدى أو صراخ عامل مصاب، بل كان صرخة ممتدة، كأنما خرجت من قلب الأرض نفسها، انقطعت الأنفاس، وجفت الحلوق خوفًا، وتوقف العمال عن العمل، وكأن المكان كله يغوص في حالة من الرعب الصامت،

ومن يومها بدأت الأحداث تأخذ منحى أكثر خطورة، كان سليمان قد أجَّر شقتين: واحدة لزوجته وأبنائه ووالدته، والأخرى لولاء، تلك البومة التي تسبَّبت في كل الخراب، استيقظوا يومًا ليجدوا كريم الابن الأصغر لسليمان، وقد كان صبيًا مرحًا ومليئًا بالحياة، وجدوه في حالة غريبة من التوهان، كان الفتى صامتًا يمعن بعينيه في الفراغ، فزعت أمه وجدته التي ظلت تردد: " أخبرتك أنهم لن يتركونا.. أخبرتك".

بينما وقف سليمان مصدومًا لا يدرك ما يحدث،

كانت الزوجة تبكي، تحوقل وتبسمل ثم نظرت لسليمان وهي تحتضن كريم قائلة من بين عبراتها: "والدتك محقة، أخبرني عدة مرات أنه يرى ظلالًا تتحرك حوله، في البداية ظن أنها مجرد تهيؤات، لكن الأمر تطور عندما سمع أصواتًا تناديه من تحت الأرض، قال أنها تطلب منه مساعدتها، كلما بقى وحده خرج يصرخ وهو يخبرني بذلك، ولكني اكتفيت بتحصينه بالقرآن وإشعال البخور، اعتقدت أن تلك الشقة بها شيء ما".

كان الأمر واضحًا، وصلت الأرواح لعائلة سليمان، كا يعتقد أن الأمر سيقتصر على إخافة العمال فقط، ولكن الأمر الآن وصل لأسرته، انطلق يومها مسرعًا لموقع الهدم، ليوقف ما يحدث إلا أنه وجد العمال قد هدموا المنزل بالكامل، كان السيف قد سبق العزل.

حالة كريم كانت تزداد سوءًا، ولم يجد أحد الأطباء علاجًا له، كان شاردًا صامتًا إلا أنه ينتبه أحيانًا، وكأن شخص ما يكلمه ثم يشرع في نوبة بكاء عنيفة، كان يردد:" أسكتوهم، أسكتوهم، لن أساعدهم".

ولم ينجح أحد في معرفة ماذا يسمع الطفل ولا كيف يساعدوه، وبعدها بدأ الطفل يفقد قدرته على التمييز بين الواقع والخيال، يقولون أنه كان يهذي طوال الوقت وكأنه فقد عقله، لا يجيب ندائات أهله، ولا يرد على أي استفسار، وفي ليلةٍ سوداء، استيقظ كريم فجأةً، وكأنما استولت عليه قوة خفية، اندفع إلى الغرفة التي كانت فيها والدته، وقبل أن يدرك أحد ما يحدث، قام بطعنها بسكين المطبخ دون وعي، وبعدها اتجه لغرفة شقيقة الأكبر وطعنه بالطريقة نفسها.

مات كلاهما بطعنات نافذة متعددة، قال الأطباء أن قوة الضربات تتنافى مع قوة الطفل الجثمانية، وأكن شخصًا قوي بالغ كان يطعنهما، الصبي نفسه لم يكن مدركًا لما فعل، بل استمر يصرخ: "إنهم يريدونهم، هم مَن أخذوهم!"

اليوم التالي، فقد الابن عقله تمامًا، أصبح يرى الأشباح في كل مكان، يتحدث مع الفراغ، ويرسم جدران الغرفة بكلمات لا يستطيع أحد فهمها.

ما يحدث كان أكبر من قوة استيعاب سليمان نفسه، مات ابنه الأكبر وزوجته، وجنَّ الأصغر، فقد أسرته كلها في ليلة واحدة، والأسوأ أنه لا يستطيع إيقاف ما يحدث، صحيح أنه أوقف العمل في البيت إلا أن اللعنة لازالت تطارده، تحوَّل الرجل تمامًا، صار يسير تائهًا لا يرد على أحد، طالت لحيته وأصبحت ثيابه مهملة، كان يفقد عقله بالتدريج، كان قد وصل إلى نقطة اللاعودة، لذلك وبعد إلحاح والدته لجأ سليمان إلى الطريقة الوحيدة التي بقيت أمامه، الشيخ الذي استعان به جده، وقرر البحث عن رجل دين يشبهه يمكنه المساعدة.

استدعى شيخًا معروفًا من خارج المدينة، دله عليه بعض أولاد الحلال، يقولون أن الشيخ اسمه حسن أو ربما صالح، لا أستطيع التذكر، فلنقل حسن، عندما وصل الشيخ حسن إلى أطلال البيت شعر بالرهبة تملأ المكان، وقف في منتصف ما كان يومًا الفناء، وأغمض عينيه، كما فعل الشيخ القديم منذ سنوات، و بدأ الشيخ يقرأ الأدعية، وكان الجو يزداد ثقلًا عن كل كلمة، وكأن الهواء يفر من المكان، وفجأةً.. اهتزت الأرض بقوة، وكأن الأرواح التي كانت مدفونة تحتها تحاول الإفلات من قيدها، رأى الشيخ الظلال تتحرك

في كل مكان، وسمع الأصوات الهمسية التي كانت تأتي من تحت الأنقاض.

قال الشيخ بصوت مليء بالحزن: "الأرواح هنا لن تغفر، لقد كُسِر العهد، ولا سبيل لتهدئتها إلا بإعادة كل شيء كما كان، البيت يجب أن يُعاد كما كان، والجثث المدفونة يجب أن تُحترَم".

لكن سليمان كان قد ذهب بعيدًا في الهدم، ولم يعد قادرًا على إعادة البيت لسابق عهده، والأرواح لم تعد مستعدة للهدنة إلا ببناء البيت، قرر سليمان أن يعيد بناء جزء من البيت بالأموال التي يملكها مؤقتًا وليواجه السجن لاحقًا حين يطلب شريكه استعادة نقوده، على الأقل ينقذ والدته وزوجته الباقية، ولكن أين ولاء؟

حين عاد للمنزل لم يكن لها أثر لا هي ولا حليها الذهبية، ولا النقود كذلك، لم يكن لها طاقة بتحمل كل تلك الدراما التي جدت على حياة زوجها، وعلى المنضدة تركت له ولاء خطابًا، قالت فيه:" لا طاقة لي بكل تلك الأحداث الحزينة، فقدت عقلك تمامًا، وصرت كالمجاذيب تؤمن روح ولعنة وهراء لا صحة له، وترفض الاقتناع بأن ابنك فقد عقله، وأنه كان مجنونًا قاتلًا، أوقفت العمل في المشروع، وسيطلب الرجل نقوده عاجلًا، لذلك قررت أن أنجو بنفسي، أما المال فقد اعتبرته مؤخرًا، وتعويضًا عن تلك الحياة البائسة التي جمعتني بك".

لم يعد هناك مالٌ لا لإعادة البناء، ولا لسد المال لصاحبه، كان مصيره قد حُسِم.

في تلك الليلة المشؤومة، بعد زيارة الشيخ، كان الجو قرب البيت الرمادي ثقيلًا بشكل غير طبيعي، كل مَن اقترب من البيت شعر برهبة لا يمكن تفسيرها، وكأن شيئًا غامضًا يراقبهم من الظلال، الأصوات التي كانت تُسمَع كهمسات من قبل، أصبحت الآن واضحة ومزعجة، صرخات نساء وأطفال، وكأنهم عالقون في مكان بين الحياة والموت.

سليمان كان يجلس فوق الأطلال، منهكًا، شارد الذهن بعد كل ما مر به، ظل يتذكر الليلة التي قرر فيها هدم البيت، وكيف كانت تلك اللحظة هي بداية النهاية لكل شيء، الفوضى التي تسود حياته الآن، وفقدانه لأبنائه وزوجته، كان كل ذلك يطارده ككابوس لا ينتهي.

وفجأة، سمع طرقات بطيئة على باب الغرفة، ارتعدت أوصاله، فحين رفع رأسه وجد أنه جالسٌ في غرفته القديمة بالمنزل المهدوم، قبل أن يفهم ما يحدث عادت الطرقات بوقع أشد، ثم فُتِح الباب بحذر، وأمامه دخلت والدته، كانت تبدو أصغر وأقوى، ترتدي لباس أبيض مضيئًا وضعت يدها على وجهه، شعر بيدها فعلًا على وجهه، كانت ملامحها هادئة، لكن عينيها مليئتان بالحزن، رفعت كلتا يديها

في الهواء وهزت كتفيها، وكأنها تخبره أن ما باليد حيلة، ونظرت له نظرة شعر منها أن النهاية قد اقتربت.

ببطء، خطت خطوات قليلة داخل الغرفة، ثم بدأت تختفي تدريجيًا، تاركة ورائها رائحة عتيقة تملأ المكان،

سمع سليمان صوتًها خافتًا يقول: "لقد كسرنا العهد".

انتفض فجأة من مكانه، كان لا يزال فوق الحطام، ولم يكن نائمًا ولا حتى في غفوةٍ، انتفض من مكانه وهرع للمنزل المستأجر ليجد والدته جثة هامدة بعينين مفتوحتين على آخرهما، وملامح يعلوها الفزع، كان تقرير الطب الشرعي أنها واجهت رعبًا أدى لسرعة دقات القلب ما لم يتحملة قلبها المُجهَد.. سكتة قلبية.

في اليوم التالي قرر الشريك أن يخرج عن صمته، احترم أحزان سليمان التي لا تنتهي، ولكن لن يتحمل أكثر، يكفي ما تم إهدارة من وقت حتى الآن، لذلك اتصل بالعمال، وطالبهم بالعودة غدًّا لإكمال العمل، فاتصلوا بسليمان خائفين، حين تواصل مع شريكه حدَّثه الرجل بفظاظة قائلًا: " لن أوقف العمل بعد ما أنفقت، الأعمار بيد الله، والحي أبقى من الميت".

لذلك قرر سليمان إيقاف عمليات الهدم دون وضع الرجل نفسه في الاعتبار، يكفي ما فقد حتى الآن لا يريد تحمُّل ذنب المزيد من الأرواح، لذا اتصل بالعمال، وأمرهم بتأجيل كل شيء.

لكن الأمر لم يكن قد انتهى هنا، فقد كانت اللعنة قد أصبحت جزءًا من البيت، والأطلال نفسها كانت تسعى للانتقام.

كان سليمان قد اعتاد الجلوس فوق أطلال المنهج والبكاء، صار المشهد مألوفًا للمارة حينذاك، في البداية حاول الناس التخفيف عنه ومواساته إلا أن الرجل بدا وكأنه قد فقد عقله فعلًا، لم يستجب لأيٍّ منهم، لم يمل من تكرار الفعل يوميًا، لذا صار الناس يتركونه ضاربين كفًّا بكفٍّ مكتفين بالدعاء له، إلى أن جاء يوم شتويٌّ كهذا لم يتحرك سليمان رغم غزارة الأمطار وبرودة الجو، ظل جالسًا حتى اقتراب الفجر حين شعر فجأة بهزة قوية في الأرض، لم يكف الطريق، كان الطريق خاليًا تمامًا، وقد شعر بتلك الهزة بعض الغفراء الموجودين في الشارع لحراسة المحال والعمارات، كان كأن شيئًا ما يتحرك تحت الأرض، قال أحد الغفراء أنه رأى الأطلال تنقسم لكومتين وتنشق الأرض بينهما، ثم سمع بوضوح صراخات الأرواح الغاضبة ملأت المكان، وكأنها تصرخ من أعماق الجحيم.

فجأة أخذت الأرض تبتلع جزءًا من الأطلال، ولم يكن هناك أيُّ فرصة للهروب؛ فالبيت نفسه كان يتحوَّل إلى فخ قاتل، سليمان حاول الركض لكن الأرض كانت تزداد هبوطًا من تحت قدميه.

في اللحظة التالية شاهد الرجل شيئًا يسحب سليمان من ساقه باتجاه تلك الحفرة، وكأن الأرواح التي كانت مدفونة لسنوات طويلة خرجت من أعماق الأرض لتأخذه معها، سقط سليمان وسط

الحطام، وتغطى بالغبار والتراب، عيناه تلاقتا من عين الغفير للحظة قبل أن يرى الرجل العديد من الأعين تحدق به غاضبة، فجرع فزعًا عائدًا لمنزله.

ابتلعت الأرض جزءًا كبيرًا من أطلال البيت، ولم يعد هناك أي أثر لسليمان،

في اليوم التالي التف الأهالي والسكان القدامى حول المكان، حيث كانت أطلال البيت الرمادي قابعة، وجدوا الأرض متشققة ومتصدعة، وقد ابتلعت جزءًا لا بأس به من الحطام، ولكن لا أثر لسليمان، لم يبقَ سوى الخراب، ورائحة الحزن تطفو في الجو.

القصة انتشرت في المدينة، وتحدث الناس عن اللعنة التي حلت على بيت سليمان، وعن الأرواح التي استعادت حقها بعد سنوات من الظلم، وبعد عدة أيام ظهر سليمان مجددًا بتلك الهيئة، ومن يومها لم يجب على أحد، ولم ينجح أي شخص في فهم ما حدث له، ولا معرفة أين اختفى طوال تلك الأيام، صار يهيم في الطرقات، يردد بصوت منخفض: "كسرنا العهد.. احمينا من نفسنا يارب"، وأصبح الجميع يتجنَّبه، فقد أصبح رمزًا للخوف واللعنة التي لا تنتهي.

قال إسماعيل بصوت مرتفع: " أحقًا تقول؟ "

هز زقزق رأسه بابتسامة جزلة تعلو شفتيه؛ لأنه أخيرًا اشترك معهم في حديثهم، فقال إسلام بحسرةٍ: " لماذا لا يقنع الإنسان بما قسمه الله له ويرضى بنصيبه؟"

هز حسين كتفيه وقال: " الكل يسعى للبحث عن الأفضل، وينسى أن ما وصل له اليوم كان يومًا حلمه، ربما لو تذكر الإنسان دائمًا كيف حلم لليالٍ طويلة بما يمتلكه الآن، لتلاشت نصف مشاكل الكون".

كانت كلماته جادة على غير المعتاد، وكانت صادقة جدًّا، لذا نظروا جميعًا لبعضهم، وأثروا الصمت، نظر وائل الخارج وقال: " واشكنا على الفجر يا رفاق".

تثائب أحمد قائلًا: " إذن هيا يا رفاق لنعود لمنازلنا".

نظر له وائل بحسرةٍ قائلًا: "ليتنا نستطيع!"

لم يفهم أي منهم كلماته، فسأل إسلام مستوضحًا: " ولماذا لا يمكننا؟"

تنحنح قائلًا بنبرة خالية: "بقيت قصتي لم تسمعوها".

ابتسموا جميعًا، في حين قال إسماعيل : " حسنًا، احكِ قصتك، ولنرحل بعدها".

هز وائل رأسه وقال: "نعم سنرحل جميعًا".

ثم اعتدل في جلسته قائلًا: " قصتهم تشبه قصتنا، خمس أصدقاء جمعتهم الدنيا لسنواتٍ طويلة، لم تفرِّقهم الدراسة ولا العمل ولا ظروف الحياة، عاشوا سويًّا، وأبوا ألَّا أن يموتو سويًّا".

أرواحٌ عالقة

استمرت تلك النوبة لثلاثة أيام، كان سكان الإسكندرية يتمنون لو تنتهي قبل بداية أسبوع العمل الجديد، ولكن لا حيلة لهم في ذلك، ولم يكن حال مازن بأفضل من حال الجميع، خاصةً أن أطرافه تتورَّم في الشتاء القارص، فيصبح لرتداء الحذاء عذابًا، وبالطبع لم يستطع أن يتغيَّب اليوم عن المدرسة، فاليوم هو يوم امتحان الشهر، وهو لم يحضر امتحانات الشهر الماضي، لذا لا يستطيع تفويت امتحانات ذلك الشهر.

استند بظهره على الحائط ناظرًا في ساعته، كلما مر لاصطحاب عمرو يجب أن ينتظر على الأقل ربع ساعة كاملة، لا يأتي عمرو أبدًا في موعده.

شرد بصره في كومتين من الأطلال في جهتين متقابلتين، تساءل كالمعتاد عن كل من كان قاطنًا في هذين المنزلين، ترى هل نجا منهم أحد حين انهارات تلك المنازل أم أنها كانت خالية أصلًا؟

ذكَّره المنزل بالقضية الفلسطينية، عدة أشهر مضت حتى الآن، ولم تنتهِ تلك المجازر، يضايقه مشهد لمنزلين مهدومين، ومئات المنازل مهدومة هناك على رؤوس أصحابها، الآف الأطفال والنساء والشيوخ يموتون يوميًا، تنهَّد وهو ينظر للسماء وقال: " ياربَّ".

ظهر عمرو أخيرًا مبتسمًا حاملًا في يده كوبين حراريين يتصاعد منهما البخار، ابتسم مازن رغمًا عنه، كلما نوى الشجار مع عمرو فاجئه الأخير بكوب من الشاي بلبن الساخن أو شطيرة ساخنة للإفطار.

بادره عمرو بالحديث قائلًا: " أمي هي السبب، أصرت على إرسال ذلك لك".

قالها وهو يرفع الكوب أمام عين مازن الذي تناوله قائلًا: " لا تترك لي والدتك فرصة للشجار معك، مضطر أن أقبل".

رشف كلهما من كوبه، فسرت موجة من الدفء في أوصالهما دفعتهما للتحرك للمدرسة، مرا بجوار المنازل المهجورة، فتمتم عمرو ببعض الأدعية، وجدها مازن فرصة لسؤاله، فقال بسرعة: " لماذا تتمتم بأذكار كلما مررنا من هنا؟"

نظر له عمرو بدهشةٍ قائلًا: " ألا تعرف قصة هذين المنزلين؟"

هز خالد كتفيه أن لا، وسأل: " هل يمكنك أن تحكيها لي؟"

رشف عمرو رشفةً أخرى، وقال مشيرًا للمبنى الأول: " هذا المبنى هو مبنى ورشة سليمان".

وانطلق يحكي لصديقه قصة سليمان وورشته التي يعرفها جميع سكان الحي كبار وصغار، كانا قد اقتربا من باب المدرسة حين قاطعه مازن بلهفةٍ قائلًا: " ما قصة المبنى الآخر؟"

أغلق عمرو الكوب الذي فرغ من المشروب الدافئ داخله، وقال : " كانت عمارة خالية تقريبًا، ولكن أسفلها مقهى، انهارت منذ عدة سنوات قبل الفجر بلحظات، ولكن رغم أنها انهارت في يوم شتوي عاصف فجرًا، إلا أنها لم تكن خالية، كان يجلس داخلها مجموعة من الأصدقاء.. يقولون خمسة ومعهم صبي المقهى زقزق الذي أعتاد النوم داخلها ..، هل تعلم أننا الى الأن نسمع أصوات ضحكاتهم وحكاياتهم كلما عصف الجو بتلك الطريقة، يقولون أننا لو اقتربنا من الأنقاض سنستمع لأصواتهم بوضوح، قال صديقى الذي تجرَّأ واقترب أنه سمعهم يحكون عن مزاد وبومة مسحورة، وآخر قال أنه سمعهم يحكون عن تمثال فرعوني، بينما قال ثالث أنه سمع حكاية كاملة عن شخص مصاب بفصام، ومات منتحرًا في مصحة، علقت أرواحهم يا صديقي منذ أن ماتوا جميعًا داخل المقهى عقب انهيار المبنى قبل أن يتمكَّنوا من الخروج، وصاروا منذ تلك الليلة من عدة سنوات يعيدون الليلة نفسها بالحكايات نفسها، لذلك كلما مررت هناك عكفت أقرأ الفاتحة على أرواحهم جميعًا".

كانا قد وصلا للمدرسة ، ورغم نظرة الحزن والفزع في عين مازن إلا أنهما جريا على فصولهم بعد إلغاء طابور الصباح لبرودة الجو وشدة الأمطار، ليبدأ الامتحان الذي جاء اليوم لأجله.

تمت

فهرس

إهداء ٥
المقدمة..... ٧
أرواحٌ عالقةٌ..... ٩
في بيتنا قطٌ..... ١٧
المزاد..... ٤١
سحر عمي..... ٨٩
خطابات خالد ١١٧
كنز سليمان..... ١٤٧